مدى صحة ما نُسب لشيخ الإسلام ابن تيمية وأهل العلم من تحريم الكيمياء والفيزياء، وما طعن عليهم من معاداة الملاحدة، والحكم عليهم بالخلود في النار (دراسة نقدية)

د. محمد جبر السيد عبد الله جميل
الأستاذ المساعد بقسم الفقه، وأصوله
كلية العلوم الإسلامية
جامعة المدينة العالمية
ماليزيا

ملخص

استهدفت الدراسة بيان مدى صحة الدعوى التي ذهب إليها الكاتب الصحفي أحمد عبد التواب فيما نسبه إلى شيخ الإسلام ابن تيمية-رحمه الله- وأهل العلم من تحريم علم الكيمياء، وعلم الفيزياء، وما طعنه عليهم من معاداة الملاحدة، والحكم على من مات كافرا بالخلود في النار. واستندت الدراسة إلى المنهج النقدي لتقييم صحة هذه الدعوى، ومدى دلالة الأدلة التي استندت إليها. وتمثلت أداة الدراسة فى مسح الأدبيات المتعلقة بموضوع الدراسة. وتوصلت الدراسة للعديد من النتائج أهمها: أن شيخ الإسلام ابن تيمية-رحمه الله- لم يحرِّم علم الكيمياء ولا حرَّم غيره من العلوم الدنيوية النافعة. وما ذهب إليه – وهو الصحيح- تحريم استغلال هذه العلم وغيره من العلوم في التوصل بها إلى محرم-أنه لم يُنقل عن أحد من أهل العلم الشرعي –سلفا وخلفا- أنه قال بتحريم علم الكيمياء وتحريم علم الطبيعة (الفيزياء)، أو غيرهما من العلوم الدنيوية النافعة- أنَّ الطعن على أهل العلم بمعاداة الملاحدة لا وجه له لأنَّ الصحيح هو وجوب البراءة من الكفار. وهذا لا يتنافى مع إسداء البر والإحسان إلى الكافر ما لم يكن محاربا.- أنَّ الأدلة القطعية من الكتاب والسنة والإجماع والمعقول تضافرت على أن مات كافرا لن تقبل منه توبة في الآخرة ومصيره إلى جهنم خالدا مخلدا فيها والعياذ بالله. وقد أوصت الدراسة بتبصير الأفراد بالمكانة العالية التي يحتلها شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله- بين أئمة الإسلام، وتحذيرهم من الاغترار بما يروجه أهل الأهواء من دعاوى زائفة- بين الحين والآخر - للنيل من أئمة الأمة الأعلام.

الكلمات المفتاحية: الدعوى المنسوبة لشيخ الإسلام ابن تيمية وأهل العلم، تحريم الكيمياء والفيزياء.

Abstract

Assessing The False Statements attributed to Ibn Taimia and the Scholars of Islam Concerning the Issues of Chemistry and Physics Prohibition, Dissociation and Hellfire for Atheists; A Critical Study

The study aimed at evaluating the viewpoint and evidence the Egyptian writer Ahmed Abd-Al-Twaab concerning what he attributed to Ibn Taimia and the Scholars of Islam with regard to the issues of Chemistry and Physics prohibition, dissociation and Hellfire for atheists . The study used the critical-analysis methodology to investigate the targets in question. To gather the required data, a review of literature was administered. The study came to the conclusion that neither Ibn Taimia nor the Scholars support the idea that Chemistry and Physics are prohibited. The writer's criticism of the Scholar's support to dissociation of atheists proves to be unauthentic because it breaks the tradition of the Salaf (Our Righteous Ancestors) who asserted that it atheists as well as other disbelievers ought to be dissociated. Decisive evidence from the Qur'n, the Sunna, the Scholars' Consortium as well as Reason support that no disbelievers' repentance won't be accepted in the Hereafter and the Hellfire will be their dwelling for ever. The study

recommended that individual Muslims ought to be aware of the distinguished status of Ibn Taimia and not to be influenced by false beliefs regarding this question.
Keywords: The false statements attributed to Ibn Taimia and the Scholars of Islam, Chemistry and Physics prohibition.

مقدمة

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده، ورسوله.

(يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون) [(1)].

(يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء، واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام، إنَّ الله كان عليكم رقيبا) [(2)].

(يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا يصلح لكم أعمالَكم ويغفر لكم ذنوبَكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما) [(3)].

أما بعد [(4)]:

فقد طالعتنا جريدة الأهرام المصرية بمقال للكاتب الصحفي أحمد عبد التواب بعنوان: " يكرهون العلم ويجهلون هوكنج " [(5)]، ينسب فيه لشيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله- وأهل العلم تحريم علم الكيمياء وعلم الطبيعة (الفيزياء) ومعاداة العلم الدنيوي وينتقص فيه من شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله- ويطعن فيه على أهل العلم معاداتهم للملاحدة والحكم على من مات كافرا بالخلود في النار. وقد ثار التساؤل بشأن مدى صحة ما ذهب إليه الكاتب الصحفي أحمد عبد التواب، وهذا ما تحاول أن تتصدى له الدراسة الحالية.

مشكلة الدراسة

تتلخص مشكلة الدراسة الحالية في التساؤل الرئيس الآتي:

ما مدى صحة دعوى الكاتب الصحفي أحمد عبد التواب فيما نسبه وطعن فيه على شيخ الإسلام ابن تيمية-رحمه الله- وأهل العلم من تحريم علم الكيمياء، وعلم الطبيعة (الفيزياء)، ومعاداة الملاحدة والحكم على من مات كافرا بالخلود في النار؟

ويتفرع عن هذا التساؤل الرئيس التساؤلين الفرعيين الآتيين:

1- ما مدى صحة الدعوى التي ذهب إليها الكاتب الصحفي أحمد عبد التواب فيما نسبه إلى شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله – من تحريم علم الكيمياء؟

2- ما مدى صحة الدعوى التي ذهب إليها الكاتب الصحفي أحمد عبد التواب فيما نسبه إلى أهل العلم من تحريم علم الطبيعة (الفيزياء) ومعاداة العلم الدنيوي؟

3- ما مدى صحة الطعن الذي ذهب إليه الكاتب الصحفي أحمد عبد التواب على أهل العلم من معاداة الملاحدة والحكم على من مات كافرا بالخلود في النار؟

أهداف الدراسة

بناءا علي التساؤلات السابقة، تتحدد أهداف الدراسة في الآتي:

1- بيان مدى صحة الدعوى التي ذهب إليها الكاتب الصحفي أحمد عبد التواب فيما نسبه إلى شيخ الإسلام ابن تيمية-رحمه الله- من تحريم علم الكيمياء، والرد على انتقاصه من شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.

2- بيان مدى صحة الدعوى التي ذهب إليها الكاتب الصحفي أحمد عبد التواب فيما نسبه إلى أهل العلم من تحريم علم الطبيعة (الفيزياء)، ومعاداة العلم الدنيوي.

3- الرد على طعن الكاتب الصحفي أحمد عبد التواب على أهل العلم لمعاداتهم الملاحدة، والحكم على من مات كافرا بالخلود في النار.

أهمية الدراسة

تتمثل أهمية الدراسة في جانبين هما:

الجانب الأول: الأهمية النظرية: تتجلي الأهمية النظرية في الدراسة في أنها تحاول استكمال الجهود العلمية التى انصبت على تفنيد الدعاوى المتعلقة بالشبهات التي يثيرها أهل الأهواء للطعن على علماء الإسلام، وأهله في محاولة لإثراء ما كتب في هذا الخصوص.

الجانب الثاني: الأهمية التطبيقية: تتجلي الأهمية التطبيقية للدراسة في أنها تسهم في تحذير الأفراد بعدم الانخداع بالدعاوى التي تطفو بين الحين، والآخر للطعن على علماء الدين، وأهل الإسلام.

حدود الدراسة

تتمثل الحدود الموضوعية للدراسة الحالية في أنها تقتصر علي مسألة الدعوى التي ذهب إليها الكاتب الصحفي أحمد عبد التواب بشأن ما نسبه لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وأهل العلم من تحريم علم الكيمياء وعلم الطبيعة، ومعاداة الملاحدة وتقييم ذلك في ضوء الكتابات التي تناولت هذه المسألة.

منهج الدراسة

تستند الدراسة إلي المنهج النقدي؛ حيث يجري تقييم مدي صحة الدعوى التي ذهب إليها الكاتب
الصحفي أحمد عبد التواب بشأن ما نسبه لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وأهل العلم ومدى دلالة الأدلة التي استند إليها لتدعيم هذه الدعوى.

إجراءات الدراسة

تتحدد إجراءات الدراسة في الآتي:

- جمع المادة العلمية المتعلقة بموضوع الدراسة.
- عزو الآيات القرآنية
- تخريج الأحاديث النبوية و الآثار الواردة فى الدراسة.
- توثيق النقول من أقوال العلماء من مصادرها الأصلية وإلا فعزوها إلى المصادر الثانوية إن تعذر ذلك.
- توضيح الألفاظ المبهمة.
- إلحاق فهرس للمراجع.

مصطلح الدراسة

الملاحدة:

المِلاحدة في اللغة:

الملاحدةُ لغةً مفرد المُلْحِد. والمُلْحِد اسم فاعل مشتق من الفعل الثلاثي لَحَدَ. يقال: لَحَدَ في الدِّينِ يَلْحَدُ وأَلْحَدَ: مَالَ وعَدَلَ. وقيل: لَحَدَ: مالَ وجارَ. وألحَدَ في الدين ولَحَدَ: أي: حاد عنه. والمُلْحدُ: العادلُ عن الحقِّ المُدْخِلُ فيه ما ليس فيه، والإلحادُ هو: العدول عن الحق (6).

الملاحدة في الاصطلاح:

الإلحاد في الاصطلاح: التكذيب (7)، والمُلْحِد هو: المكَذِّب.

ويتفق المعنى الاصطلاحي مع المعنى اللغوي في تعريف الإلحاد. فالإلحاد في المعنى الاصطلاحي: التكذيب. والتكذيب في جوهره ميل عن الحق. ومع ذلك يلاحظ أنَّ التعريف الاصطلاحي للإلحاد يتسم بالعموم. فالتكذيب قد يكون لشخص أو لمعتقد، وهذا غير واضح في ثنايا التعريف.

والمراد بالإلحاد في البحث الحالي هو: التكذيب لوجود الله تعالى، والمُلْحد هو: المُنْكِر لوجود الله تعالى ويلتقي مفهوم المِلحد مع مفهوم الزّنديِق: فالزِّنديق هو القائل ببقاء الدهر، وزنْدَقَتُهُ أنه لا يؤمنُ بالآخرةِ ووحدانية الخالق (8)، والملحد ينكر وجود الله تعالى، وعلى ذلك فكل ملحد زنديق.

خطة الدراسة

تتألف الدراسة من مقدمة، وثلاثة مباحث، وخاتمة، وفهرس، وملحق كالآتي:

المقدمة: تتناول مشكلة الدراسة، وأهداف الدراسة، وأهمية الدراسة، ومنهج الدراسة، وإجراءات الدراسة، وحدود الدراسة، ومصطلح الدراسة، وخطة الدراسة.

المبحث الأول: يتناول دعوى الكاتب الصحفي أحمد عبد التواب بشأن ما نسبه إلى شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- وأهل العلم من تحريم علم الكيمياء، وعلم الطبيعة، ومعاداة العلم الدنيوي، ومعاداة الملاحدة والحكم على من مات كافرا بالخلود في النار.

المبحث الثاني: يتناول مدى صحة دعوى الكاتب الصحفي أحمد عبد التواب بشأن ما نسبه إلى إلى شيخ الإسلام ابن تيمية وأهل العلم من تحريم علم الكيمياء وعلم الطبيعة (الفيزياء)، ومعاداة العلم الدنيوي

المبحث الثالث: يتناول مدى صحة دعوى الكاتب الصحفي أحمد عبد التواب بشأن ما طعن فيه على أهل العلم من معاداة الملاحدة، والحكم على من مات كافرا بالخلود في النار.

الخاتمة: تتناول نتائج الدراسة، وتوصياتها.

الفهرس: يتضمن قائمة بالمراجع التي استندت إليها الدراسة.

الملحق: يتضمن صورة ضوئية من المقال الذي يتناول دعوى الكاتب الصحفي أحمد عبد التواب بشأن ما نسبه لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وأهل العلم.

ويجري تفصيل ذلك علي النحو الآتي:

المبحث الأول

دعوى الكاتب الصحفي أحمد عبد التواب بشأن ما نسبه إلى شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- وأهل العلم

يتعرض المبحث الحالي لبيان دعوى الكاتب الصحفي أحمد عبد التواب بشأن ما نسبه إلى شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وأهل العلم من تحريم علم الكيمياء وعلم الطبيعة، ومعاداة العلم الدنيوي ومعاداة الملاحدة وتكفيرهم كالآتي:

أولا: دعوى الكاتب الصحفي أحمد عبد التواب بشأن ما نسبه لشيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- :

ذهب الكاتب الصحفي أحمد عبد التواب إلى الادعاء بأنَّ شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- ذهب إلى تحريم علم الكيمياء فيقول: " فمن النصوص الرائجة هذه الأيام نقلا عن أحد كتب الشيخ، قوله: إنَّ الكيمياء أشد تحريما من الربا، وإنَّ أهل الكيمياء من أعظم الناس غشا! وأما حجته فهي أنه لم يكن في أهل الكيمياء أحد من الأنبياء، ولا من علماء الدين، ولا من مشايخ المسلمين، ولا من الصحابة، ولا من التابعين لهم! ".

كما ذهب إلى الانتقاص من شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله- والدعوة – في نفس الوقت - إلى تقدير عالم الفيزياء الإنجليزي الملحد ستيفن هوكنج الذي مات مؤخرا؛ فكتب يقول: "لم يكن متوقعا ممن يُمجدِّون ابن تيمية ويعتمدون له لقب شيخ الإسلام ويستوحون منه ما عليهم أنْ يفعلوه أو أن يجتنبوه، أن يُظهروا أي تقدير للعالم الفذ ستيفن هوكنج الذي نال احترام العالم أجمع لأبحاثه عن الكون والزمن التي طرحت اجتهادات جسورة هزَّت نظريات ومفاهيم سابقة ".

ثانيا: دعوى الكاتب الصحفي أحمد عبد التواب بشأن ما نسبه لأهل العلم:

ذهب الكاتب الصحفي أحمد عبد التواب إلى الادعاء بأنَّ أهل العلم الشرعي ذهبوا إلى تحريم علم الطبيعة (الفيزياء) كما حرَّموا علم الكيمياء؛ فيقول: " وأما هوكنج الذي تخصص في الفيزياء النظرية، وهو علم لا يقل ضلالة في عرفهم من الكيمياء، فقد شنوا عليه هجوما ضاريا فور إذاعة خبر وفاته ".

وذهب ينسب لأهل العلم الشرعي أيضا بأنَّهم معادون للعلم الدنيوي، وأهله، فيقول: " ولكن هناك من قرروا أن يغلقوا عقولهم وقلوبهم ليس كراهية في رجل لا يفقهون حرفا من إنجازاته، ولكن خوفا منهم أن ينتشر أثر العلم والعلماء والمنهج العلمي ".

بل وذهب يستهجن معاداة أهل العلم للعالم الملحد، ويستهجن الحكم على من مات كافرا بالخلود في النار؛ فكتب يقول: "وأعلنوا أنهم يعادونه لأنه أشهر إلحاده ومات كافرا، وقضوا عليه بالخلود في بالنار! ولم يشفع له زعمهم بالإيمان الراسخ في حرية العقيدة وأنَّ من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، ولم تخفف له إسهاماته العلمية للإنسانية ولا إضافاته النوعية للتراث المعرفي، ولا موقفه الداعم للفلسطينيين عندما رفض تلبية دعوة إسرائيلية للمشاركة في مؤتمر علمي في الأرض المحتلة، وأصدر بيانا أكد فيه أنَّ امتناعه سياسي ضد ممارسات إسرائيل ".

المبحث الثاني

الرد على الكاتب الصحفي أحمد عبد التواب بشأن ما نسبه لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وانتقاصه منه

يتناول المبحث الحالي بيان مدى صحة ما نسبه الكاتب الصحفي أحمد عبد التواب لشيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – من تحريم علم الكيمياء، والرد على تجريحه لشيخ الإسلام –رحمه الله- بغير حق وذلك في مطلبين كالآتي:

المطلب الأول

مدى صحة دعوى الكاتب الصحفي أحمد عبد التواب بشأن ما نسبه لشيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - من تحريم علم الكيمياء

ذهب الكاتب الصحفي أحمد عبد التواب إلى الادعاء بأنَّ شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- ذهب إلى تحريم علم الكيمياء فيقول: " فمن النصوص الرائجة هذه الأيام نقلا عن أحد كتب الشيخ، قوله: إنَّ الكيمياء أشد تحريما من الربا، وإنَّ أهل الكيمياء من أعظم الناس غشا! وأما حجته فهي أنه لم يكن في أهل الكيمياء أحد من الأنبياء، ولا من علماء الدين، ولا من مشايخ المسلمين، ولا من الصحابة، ولا من التابعين لهم! ".

ويجاب عن ذلك بالآتي:

أولا: لقد قام الكاتب المذكور بانتزاع هذه النصوص من سياقها الذي وردت فيه، وإيرادها على هذا النحو المبتوت ليوهم القارئ بأنَّ شيخ ٱلإسلام ابن تيمية – رحمه الله- يعادي العلوم الدنيوية النافعة، وهذا غير صحيح.

وكان الأجدر بهذا الكاتب المذكور أن يعرض هذه النصوص في سياقها الذي وردت فيه– من باب الأمانة العلمية – ليتبين القارئ حقيقة مراد شيخ الإسلام –رحمه الله- من ذلك. فشيخ الإسلام –رحمه الله – لم يحرم العلوم الدنيوية النافعة بأي حال؛ بل – على خلاف ذلك – فإنَّه أجاز اكتسابها والنهل منها حتى لو كان ذلك من سبيل الكفار، وذلك لتحقيق حاجة الأمة منها، وإغنائها عن عدوها. ويدلل على ذلك قوله- رحمه الله-: " فإنْ ذَكَرَ ما لا يتعلق بالدين مثل مسائل الطب والحساب ... وكَتَبَ مَن أخذ عنهم مثل: محمد بن زكريا الرازي وابنُ سينا ونحوِهما من الزنادقة الأطباء ما غايته: انتفاعٌ بآثار الكفار والمنافقين في أمور الدنيا جائزٌ ... فأَخْذُ علمُ الطب من كُتبهم مثلُ الاستدلالِ بالكافر على الطريق واستطبابه بل هذا أحسنُ لأن كُتُبَهم لم يكتبوها لمعين من المسلمين حتى تدخل فيها الخيانةُ، ليس هناك حاجةٌ إلى أحدٍ منهم بالخيانة، بل هي مجردُ انتفاع بآثارهم كالملابس، والمساكن والمزارع والسلاح ونحو ذلك " (9).

كما يدلل على ذلك إشادته لما قام به العلماء المسلمين من تهذيب العلوم الدنيوية التي نُقلت عن غير المسلمين، وذلك بقوله: " من المعلوم لكل عاقل له أدنى نظرٍ وتأملٍ: أنَّ أهلَ المِلَلِ أكملُ في العلوم النافعةِ، والأعمال الصالحةِ؛ ممن ليس من أهل الملل. فما من خيرٍ يوجد عن غير المسلمين من أهل الملل إلا عند المسلمين ما هو أكملُ منه، وعند أهلِ الملل ما لا يوجدُ عند غيرهم، وذلك أنَّ العلومَ والأعمالَ نوعان: نوعٌ يحصلُ بالعقل: كعلم الحساب والطب وكالصناعة من الحياكة والخياطة والتجارة ونحو ذلك. فهذه الأمور عند أهل الملل كما هي عند غيرهم؛ بل هم فيها أكملُ. فإنَّ علومَ المتفلسفة – من علوم المنطق والطبيعة والهيئةِ وغير ذلك- من متفلسفة الهند واليونان وعلومِ فارس والروم؛ لما صارت إلى المسلمين: هذَّبوها ونقَّحوها؛ لكمال عقولهم، وحسْنِ ألسنتهم ... وأما ما لا يُعلم بمجرد العقل كالعلومِ الإلهية وعلوم الديانات فهذه مختصةٌ بأهل الملل " (10).

ثانيا: لم يكن مراد شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله- من إيراد هذه النصوص - تحريم علم الكيمياء ولا تحريم غيره من العلوم الدنيوية النافعة، بل كان مراده تحريم استغلال هذه العلم وغيره من العلوم في التوصل بها إلى محرم. ويتضح ذلك من عرض نص كلامه كاملا كالآتي:

" سُئل شيخ الإسلام: عن عمل الكيمياء؛ هل تصح بالعقل أو تجوز بالشرع؟

فأجاب: .... حقيقة الكيمياء إنما هي تشبيهُ المخلوق وهو باطل في العقل والله تعالى ليس كمثله شيءٌ لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله. فهو سبحانه لم يَخْلُق شيئا يَقْدِرُ العباد أنْ يصنعوا مثلَ ما خلق ... وإنما غايتهم أنْ يُشَبِّهوا من بعض الوجوه ... مع اختلاف الحقائق ... وهذا التصويرُ ليس فيه غشٌ ولا تلبيسٌ، فإنَّ كلَّ أحدٍ يُفرِّقُ بين المصَوَّرِ والمخلوق. وأما الكيمياءُ: فإنه يُشَبِّهُ فيها المصنوعَ بالمخلوق وقَصْدَ أهلها أنْ تجعل هذا كهذا فينفقونه ويعاملون به الناس وهذا من أعظم الغش" [11]. "ومن زعم من الكيماوية أنَّ الفضةَ ذهبٌ لم يستكمِل نُضجهُ فقد كذب؛ بل لهذا معدنٌ ولهذا معدنٌ ... ثم إن الذين يصنعون الكيمياءَ ويدَّعون أنها حقٌ حلالٌ لو بيع لأحدهم ذهبٌ وقيل له: هو من عمل الكيمياء لم يَشْتَرِهِ كما يشتري المعدني، وإنْ صُنع به كما يُصنع بذهبه الذي يعلمُه من الاعتبار؛ بل قد جُبلت قلوب الناس على أنَّ من فَعَل هذا نسبوه إلى الغش [12].

فهذا النص يبين أن شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله- لم يذهب إلى تحريم علم الكيمياء بالمفهوم المعاصر؛ وهو دراسة المادة؛ من حيث بنيتها، وخواصها،وتفاعلاتها، وأنَّ ما ذهب إليه هو تحريم الكيمياء – بالمفهوم القديم – وهو تحويل المعادن الخسيسة إلى أخرى بحيث تبدو أنها أسمى وأعلى قيمة، والحقيقة خلاف ذلك. وذهب شيخ الإسلام ابن تيمية-رحمه الله- إلى تحريم ذلك لما ينطوي عليه من غش وتدليس ومن أكل لأموال الناس بالباطل.

وذهب-رحمه الله- يستدل على ذلك بقوله: " وقد ثبت في الصحيح عن النبي – صلى الله عليه وسلم – (أنه مرَّ برجل يبيعُ طعاما فأدخل يَدَهُ فيه فوجدَهُ مبلولا. فقال: ما هذا يا صاحبَ الطعام؟ فقال: يا رسولَ الله أصابَتْهُ السماءُ – يعني المطرَ – فقالَ: هلاَّ وضعتَ هذا على وجهه، مَنْ غَشَّنا فليس منا) [13]؛ وقوله: (مَنْ غَشَّنا فليس منا)؛ كلمةٌ جامعةٌ في كلِّ غاشٍ. وأهلُ الكيمياء مِن أعظم الناس غشا؛ ولهذا لا يُظهرون الناسَ إذا عامَلوهم أنَّ هذا من الكيمياء، ولو أظهروا للناس ذلك لم يشتروه منهم إلا مَنْ يريدُ غِشَّهُم. وقد قال الأئمةُ: إنه لا يجوزُ بيعُ المغشوش الذي لا يُعلَمُ مقدارُ غشِّهِ وإنْ بيَّن للمشتري أنه مغشوشٌ ... وبيعُ المغشوشِ لمن لا يتبين له أنه مغشوشٌ حرامٌ بالإجماع، والكيمياءُ لا يُعلمُ مقدارُ الغش فيها فلا يجوزُ عمَلُها ولا بيعُها بحال. مع أنَّ الناسَ إذا علموا أنَّ الذهب والفضة من الكيمياء لم يشتروه. فجماهير من يطلب الكيمياء لا يصلُ إلى المصنوع الذي هو مغشوشٌ باطل طبعا محرمٌ شرعا؛ بل هم يطلبون الباطلَ الحرام ويتمَنَّوهُ... وأما خواصُهم فيصلون إلى الكيمياء وهي محرمة باطلة لكنها على مراتب؛ منها ما يستحيل بعد بضع سنين ومنها ما يستحيلُ بعد ذلك؛ لكنَّ المصنوعَ يستحيلُ ويفسدُ ولو بعد حين؛ بخلاف الذهبِ المعدني المخلوق فإنه لا يفسدُ ولا يستحيلُ " [14].

ويحتج –رحمه الله – أيضا - على تحريم هذا النوع من الكيمياء بأنه لم يكن من عمل السلف الصالح فيقول: " ولم يكن في أهل الكيمياء أحدٌ من الأنبياء ولا من علماء الدين ولا من مشايخ المسلمين ولا من الصحابة ولا من التابعين لهم بإحسان" [15].

ويشير-رحمه الله- إلى أن هذا النوع من الكيمياء أشد تحريما من الربا لأنه لا ينطوي على تحصيل الزيادة في المال بما حرمه الله فحسب –كما هو الحال في الربا-، بل وينطوي على الغش والتدليس أيضا؛ فيقول:" وعامتُهم يأكلون أموالَ الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله. ويُظهرون للطَّمَّاع أنهم يعملون الكيمياءَ حتى يأكلوا مالَه ويُفسدوا حاله، وحِكاياتهم في هذا الباب عند الناس أشهرُ من أن تحتاج إلى نَقْلٍ مستقر تدل على أنَّ أهل الكيمياء يعاقبون بنقيض قصدهم فتذهبُ أموالُهم - حيث طلبوا زيادة المال بما حرَّمه الله- بنقص الأموال كما قال الله تعالى: (يمحقُ اللهُ الربا ويُرْبِي الصدقاتِ). والكيمياء أشدُّ تحريما من

الربا. قال القاضي أبو يوسف: من طلب المال بالكيمياء أفلسَ، ومن طلب الدينَ بالكلامِ تزندقَ، ومن طلب غرائبَ الحديث كذبَ. ويُروى هذا الكلامُ عن مالكٍ والشافعي رضي الله عنهم أجمعين " [16].

من ذلك يتبين أن شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- لم يذهب إلى تحريم علم الكيمياء، ولا تحريم غيره من العلوم الدنيوية النافعة، وما ذهب إليه هو تحريم استعمال هذا العلم وغيره من العلوم فيما هو محرم.

المطلب الثاني

الرد على انتقاص الكاتب الصحفي أحمد عبد التواب لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله

ذهب الكاتب الصحفي أحمد عبد التواب إلى الانتقاص من شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله- فكتب يقول: "لم يكن متوقعا ممن يُمجدِّون ابن تيمية ويعتمدون له لقب شيخ الإسلام ويستوحون منه ما عليهم أنْ يفعلوه أو أن يجتنبوه أن يظهروا أي تقدير للعالم الفذ ستيفن هوكنج ... ".

يجاب عن ذلك بالآتي:

قوله: " لم يكن متوقعا ممن يُمجدِّون ابن تيمية ويعتمدون له لقب شيخ الإسلام ويستوحون منه ما عليهم أنْ يفعلوه أو أن يجتنبوه " فيه انتقاص لشيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله- وحط منه وكأنه غير جدير بالتمجيد، وغير جدير بأنْ يلقَّب بشيخ الإسلام. ولو كان هذا الكاتب منصفا ما تفوه بذلك. فابن تيمية – رحمه الله- جدير بكل تمجيد، وجدير بأن يلقب بشيخ الإسلام -وبغيره من الألقاب التي تليق بهذا الإمام الجليل الذي عز نظيره- شاء هذا الكاتب أو أبى. وذلك بشهادة أئمة الأمة الأعلام سلفا وخلفا. ومن ذلك الآتي:

قال جمال الدين السومري – رحمه الله- في أماليه: " ومن عجائب ما وقع في الحفظ من أهل زماننا أنَّ ابن تيمية كان يمر بالكتاب مطالعة مرة فينتقش في ذهنه وينقله في مصنفاته بلفظه ومعناه " [17].

وقال الأقشهري- رحمه الله- في حق ابن تيمية: " بارع في الفقه والأصلين والفرائض والحساب وفنون أُخَر، وما من فن إلا له فيه يدٌ طولى " [18].

وقال الطوفي-رحمه الله- في حق ابن تيمية: "كان يتكلم على المِنبر على طريقة المفسرين مع الفقه والحديث، فيورد في ساعة من الكتاب والسنة واللغة والنظر ما لا يقدر أحد على أنْ يورده في عدة مجالس كأن هذه العلوم بين عينيه " [19].

وقال الذهبي الشافعي – رحمه الله- وهو من المخالفين لابن تيمية في المذهب : " ابن تيمية الشيخ الإمام العلامة الحافظ الناقد الفقيه المجتهد المفسر البارع شيخ الإسلام، عَلَم الزُّهَّاد نادرة العصر، تقي الدين أبو العباس أحمد بن المفتي شهاب الدين عبد الحليم ابن الإمام المجتهد شيخ الإسلام مجد الدين بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم الحَرَّاني أحد الأعلام ..... عُني بالحديث ونَسْخ الأجزاء ودار على الشيوخ وخرج وانتقى وبرع في الرجال وعلل الحديث وفقهه وفي علوم الإسلام ... وكان من بحور العلم ومن الأذكياء المعدودين والزُّهَّاد الأفرا والشجعان الكبار والكُرماء الأجواد، أثنى عليه الموافق والمخالف وسارت بتصانيفه الرُّكبان لعلها بلغت ثلاثمائة مجلد ... فما رأيت مثله " [20].

وقال الحافظ صلاح الدين العلائي الشافعي-رحمه الله- وهو من المخالفين لابن تيمية في المذهب أيضا: " هو الشيخ الإمام العالم الرباني والحَبْر البحر القُطب النوراني إمام الأئمة بركة الأمة علامة العلماء وإرث الأنبياء آخر المجتهدين أوحد علماء الدين شيخ الإسلام حجة الأعلام قدوة الأنام برهان المتعلمين قامع المبتدعين سيف المناظرين بحر العلوم كنز المستفيدين

ترجمان القرآن أعجوبة الزمان فريد العصر والأوان تقي الدين إمام المسلمين حجة الله على العالمين اللاحق بالصالحين ... ناصر الحق علامة الهدى عُمدة الحفاظ فارس المعاني والألفاظ ركن الشريعة ذو الفنون البديعة أبو العباس ابن تيمية " (21).

وقال ابن كثير -رحمه الله-: " مولد الشيخ تقي الدين ابن تيمية شيخ الإسلام: قال الشيخ شمس الدين الذهبي: وفي هذه السنة ولد شيخنا تقي الدين أبو العباس أحمد بن الشيخ شهاب الدين عبد الحليم بن أبي القاسم ابن تيمية الحَراني بحَرَّان يوم الاثنين عاشر ربيع الأول من سنة إحدى وستين وسِتمِائة " (22).

وقال كمال الدين بن الزَّمَلكاني -رحمه الله- في حق ابن تيمية –رحمه الله-: "كان إذا سئل عن فن ظن الرائي والسامع؛ أنه لا يعرف غير ذاك الفن، وحكم أن أحدا لا يعرف مثله. وكان الفقهاء من سائر الطوائف إذا جالسوه استفادوا منه في مذهبهم أشياء، ولا يُعرف أنه ناظر أحدا فانقطع منه، ولا تكلم في علم من العلوم – سواء كان من علوم الشرع أو غيرها- إلا فاق فيه أهله، واجتمعت فيه شروط الاجتهاد على وجهها " (23).

وقال الحافظ أبو العباس بن الدمياطي -رحمه الله-: " ألفيته ممن أدرك عن العلوم حظا، وكاد يستوعب السنن والآثار حفظا، إن تكلم في التفسير فهو حامل رايته، وإن أفتى في الفقه فهو مُدرك غايته، أو ذاكر بالحديث فهو صاحب علمه، ذو روايته، أو حاضر بالنّحَل (24) والمِلِل، لم يُر أوسع من نِحلته، ولا أرفع من درايته، برز في كل فن على أبناء جنسه، ولم تر عين من رآه مثله، ولا رأت عينه مثل نفسه " (25).

وقال الحافظ ابن رجب –رحمه الله-: " أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن الخضر بن محمد بن تيمية الحَرَّاني، ثم الدِّمَشقي، الإمام الفقيه، المجتهد المحدِّث، الحافظ المفسر، الأصولي الزاهد، تقي الدين أبو العباس، شيخ الإسلام وعَلَم الأعلام ... أقبل على تفسير القرآن، فبرز فيه، وأحكم أصول الفقه، والفرائض، والحساب، والجبر، والمقابلة، وغير ذلك من العلوم، ونظر في علم الكلام والفلسفة، وبرز في ذلك على أهله، ورد على رؤسائهم وأكابرهم، ومهر في هذه الفضائل، وتأهل للفتوى والتدريس، وله دون العشرين سنة، وأفتى من قبل العشرين أيضا، وأمده الله بكثرة الكُتْب وسرعة الحفظ، وقوة الإدراك والفهم، وبطء النسيان، حتى قال غير واحد: إنه لم يكن يحفظ شيئا فينساه " (26).

وقال ابن حجر العسقلاني الشافعي- رحمه الله- وهو من المخالفين لابن تيمية في المذهب: " أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن تيمية الحَرَّاني ثم الدَّمَشقي الحنبلي تقي الدين أبو العباس بن شهاب الدين بن مجد الدين ... نظر في الرجال والعلل وتفقه وتَمَهَّر وتميَّز وتَقدَّم وصنَّف ودرَّس وأفتى وفاق الأقران وكان عجبا في سرعة الاستحضار وقوة الجَنَان (27) ...كان آية من آيات الله في التفسير والتوسع فيه وأما أصول الديانة ومعرفة أقوال المخالفين فكان لا يُشَقُّ غُبار فيه هذا مع ما كان عليه من الكرم والشجاعة والفراغ عن مَلاذ النفس ولعل فتاويه في الفنون تبلغ ثلاثمائة مجلد بل أكثر وكان قَوَّالا بالحق لا يأخذه في الله لومة لائم ... لم أر مثله في ابتهاله واستغاثته وكثرة توجهه ... فإنه كان مع سعة علمه وفرط شجاعته وسيلان ذهنه وتعظيمه لحرمات الله بشرا من البشر تعتريه حِدَّة في البحث وغضب وشَظَف (28) للخصم تزرع له عداوة في النفوس وإلا لو لاطف خصومه لكان كلمة إجماع؛ فإنَّ كبارهم خاضعون لعلومه معترفون بشنوفه (29) مقرون بندور خطئه وأنه بحر لا ساحل له، وكنز لا نظير له ... وكان محافظا على الصلاة والصوم معظما للشرائع ظاهرا وباطنا. لا يؤتى من سوء فهم؛ فإنَّ له الذكاء المفرط، ولا من قلة علم؛ فإنه بحرٌ زَخَّار. ولا كان متلاعبا بالدين ولا ينفرد بمسائله بالتشهي ولا يطلق لسانه بما اتفق بل يحتج بالقرآن والحديث والقياس ويبرهن ويناظر أسوة من تقدمه من الأئمة " (30).

وقال ابن تغري بردي الحنفي- رحمه الله- وهو من المخالفين لابن تيمية-رحمه الله-في مذهبه: " سنة ثمان وعشرين وسبعمائة. فيها توفي شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم الخِضر بن محمد بن تيمية الحَرَّاني ثم الدَّمَشقي الحنبلي ... وكان إمام عصره بلا مدافعة في الفقه والحديث والأصول والنحو واللغة وغير ذلك. أثنى عليه جماعة من العلماء مثل الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد والقاضي شهاب الدين الجويني والقاضي شهاب الدين ابن النحاس " (31).

ويقول الداوودي-رحمه الله-: " أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم الخِضر بن محمد بن تيمية الحَرَّاني ثم الدَّمَشقي الحنبلي، الإمام العلامة الفقيه المجتهد الناقد المفسر البارع الأصولي شيخ الإسلام عَلَم الزهاد نادرة دهره تقي الدين أبو العباس " (32).

وقال الشوكاني-رحمه الله-: " أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن القاسم بن تيمية الحَرَّاني الدَّمَشقي الحنبلي تقي الدين أبو العباس شيخ الإسلام إمام الأئمة المجتهد المطلَق ... أثنى عليه جماعة من أكابر علماء عصره فمن بعدهم، ووصفوه بالتفرد، وأطلقوا في نعته عبارات ضخمة، وهو حقيق بذاك " (33).

من ذلك يتبين أنَّ من يتجرأ بالطعن على شيخ الإسلام ابن تيمية أو يتجرأ على الانتقاص من قدره إنما حاله لا يخلو من أمرين؛ إما جاهل لا يعرف قد شيخ الإسلام، وهذا الجاهل لا يعذر بجهله لتيسر سبل رفع هذا الجهل، وإما حاقد ينفث بسمومه لتشويه أئمة الدين، وحَمَلة مشاعله. وهو بهذه الخناجر المسمومة لا يرمي إلى تشويه أئمة الدين بقدر ما يرمي إلى تقويض أركان الإسلام ذاته. ولكن هيهات هيهات؛ فإن الله متم نوره ولو كره الحاقدون، ونقم الناقمون.

المبحث الثاني

مدى صحة دعوى الكاتب الصحفي أحمد عبد التواب بشأن ما نسبه لأهل العلم من تحريم علم الطبيعة (الفيزياء) ومعاداة العلم الدنيوي

يتناول المبحث الحالي بيان مدى صحة ما ذهب إليه الكاتب الصحفي أحمد عبد التواب بشأن ما ادعاه بأنَّ أهل العلم قالوا بتحريم علم الطبيعة (الفيزياء)، واتخذوا موقفا معاديا للعلوم الدنيوية. ويجرى استعراض ذلك في مطلبين:

المطلب الأول

مدى صحة دعوى الكاتب الصحفي أحمد عبد التواب بشأن ما نسبه لأهل العلم من تحريم علم الطبيعة (الفيزياء)

ذهب الكاتب الصحفي أحمد عبد التواب إلى الادعاء بأنَّ أهل العلم الشرعي ذهبوا إلى تحريم علم الطبيعة (الفيزياء) كما حرَّموا الكيمياء؛ فيقول: " وأما هوكنج الذي تخصص في الفيزياء النظرية، وهو علم لا يقل ضلالة في عرفهم من الكيمياء، فقد شنوا عليه هجوما ضاريا فور إذاعة خبر وفاته ".

وهذا الادعاء لا أصل له ولا سند عليه. فلم يُنقل عن أحد من أهل العلم الشرعي أنه قال بتحريم علم الكيمياء وتحريم علم الطبيعة (الفيزياء). ولم ينقل عن أحد من أهل العلم أنه ذهب إلى تحريم علم من العلوم الدنيوية النافعة.

وإذا سلمنا جدلا بأنَّ أحدا من أهل العلم قد ذهب أثار مسألة التحريم بشأن علم من العلوم الدنيوية النافعة، فالمراد بذلك ليس تحريم العلم في ذاته، وإنما المراد هو تحريم استعمال هذه العلوم فيما هو محرم. وذلك كاستعمال التطبيقات العلمية في مجال الكيمياء في الغش والتدليس وإظهار الأمور على غير حقيقتها. وكما هو الحال في توظيف علم الطبيعة (الفيزياء) لإنتاج أسلحة تدميرية للسيطرة على البشر وتكريس استعباد الإنسان للإنسان.

ويدلل على عدم صحة ما ذهب إليه الكاتب ما جاء في فتاوى اللجنة الدائمة: " أمر الله تعالى أن يتدبروا [أي: الناس] آياته الكونية، وأنْ يتبصروا في عجائب مخلوقاته؛ ليقفوا على أسرارها ... فعلى المسلمين أن يتبصروا في كتاب الله تعالى، وفي سنة نبيه صلى الله عليه وسلم ... كما أنَّ عليهم أن يدرسوا أيضا سنن الله الكونية في السموات والأرض، ليعلموا ما أودع الله فيها من أسرار، وليستنبطوا منها ما شاء الله مما هم في حاجة إليه: من علوم الطب، والزراعة، والصناعة، والفيزياء، وطبقات الأرض، وغيرها من العلوم الكونية؛ ليستفيدوا منها في دنياهم، ويستعينوا بها في شئون دينهم، ويستغنوا بها عمن سواهم من الكافرين؛ وبذلك يجمعون بين القوة والعزة في الدنيا، والنجاة والسعادة في الآخرة، ويَصلحون للخلافة في الأرض، وعمارتها دينا ودنيا " (34).

المطلب الثاني

مدى صحة دعوى الكاتب الصحفي أحمد عبد التواب بشأن ما نسبه لأهل العلم من معاداة العلم الدنيوي

ذهب الكاتب الصحفي أحمد عبد التواب إلى الادعاء بأنَّ أهل العلم الشرعي معادون للعلم الدنيوي، وأهله، فيقول: " ولكن هناك من قرروا أن يغلقوا عقولهم وقلوبهم ليس كراهية في رجل لا يفقهون حرفا من إنجازاته، ولكن خوفا منهم أن ينتشر أثر العلم والعلماء والمنهج العلمي ".

وهذا الإدعاء لا أصل له ولا سند عليه. فلم ينقل عن أحد من أهل العلم الشرعي في القديم والحديث أنه عادى أو نادى بمعاداة العلوم الدنيوية النافعة. بل الأمر على خلاف ذلك كلية. وذلك لأن الإسلام لا يشجع على العلم والتعلم فحسب، بل ويوجب النهل من مختلف العلوم الدنيوية النافعة التي من شأنها أنْ تيسر للإنسان أداء المهمة التي خلق من أجلها وهي عبادة خالقه. فتعلم العلم الدنيوي النافع من فروض الكفاية التي يجب على المسلمين القيام بها والتي إذا أهملوها أثموا جميعا.

ويدلل على ذلك قوله تعالى: (هو أنشأكم من الأرض واستعمَرَكُم فيها) (35). فقوله تعالى: (واستعمَرَكُم فيها)؛ أي: " أمرَكم بعمارة ما تحتاجون إليه فيها من بناء مساكن، وغرس أشجار " (36).وفي ذلك دلالة على ضرورة اكتساب العلم الدنيوي النافع.. فالله تعالى قد أوجب عمارة الأرض، ولا يتم عمارة الأرض العمارة السليمة إلا باكتساب العلم الدنيوي النافع. وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. فدل ذلك على أنَّ اكتساب هذا العلم واجب من الواجبات الدينية.

ويدلل على ذلك أيضا قوله تعالى: (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) (37). فالآية الكريمة تبين " أنَّ كل علم ديني مع وسائله التي تعين على إدراكه، داخل فيما يرفع الله-مَن عَلِمَه وعَمِل به، مخلصا له – عنده درجات ... وكل علم دنيوي تحتاجه الأمة، وتتوقف عليه حياتها، كالطب والزراعة والصناعة ونحوها، داخل أيضا إذا حسُنَت النية، وأراد به متعلِمه والعامل به نفع الأمة الإسلامية ودعمها، ورفع شأنها، وإغنائها عن دول الكفر والضلال " (38).

كما يدلل على ذلك ما أخرجه مسلم- في صحيحه- عن أبي ذَرٍّ، قال: قلتُ: يا رسولَ الله، أيُّ الأعمالِ أفضلُ؟ قال: " الإيمانُ باللهِ والجهادُ في سبيلِهِ ". قال: قلتُ: أيُّ الرقابِ أفضلُ؟ قال: " أَنْفَسُها عن أهلِها وأكثرُها ثَمَنًا ". قال: قلتُ: فإنْ لم أفعلْ؟ قال: " تُعينُ صانعًا أو تصنعُ لأخرقَ (39)" قال: قلتُ: يا رسولَ الله، أرأيت إنْ ضَعُفْتُ عن بعضِ العملِ؟ قال: " تَكُفُّ شَرَّكَ عن الناس فإنها صَدَقةٌ منك على نفسِك " (40). و" قوله صلى الله عليه وسلم (تُعينُ صانعًا أو تصنعُ لأخرقَ) يدل على أنَّ إعانة الصانع المحترف وتعليم الجاهل غير المحترف يعد بابا من أبواب الخيرات التي يجب أن يحرص عليها المسلم. والمرء لا يتيسر له إعانة غيره وتعليمه في المجالات الحرفية والمهنية المختلفة إلا إذا كان ملما بأصول هذه الحرفة ومبادئ هذه المهنة. ومن المعلوم أنَّ السبيل إلى ذلك الإلمام إنما يتسنى باكتساب العلم الدنيوي النافع، وفي ذلك دلالة على أهمية تحصيله.

ويبين الغزالي -رحمه الله- أهمية تحصيل العلم الدنيوي النافع، وأنه يعد فرضا من فروض الكفايات التي يجب على الأمة القيام بها بقوله: " بيان العلم الذي هو فرض كفاية: اعلم أنَّ الفرض لا يتميز عن غيره إلا بذكر أقسام العلوم والعلوم بالإضافة إلى الغرض الذي نحن بصدده تنقسم إلى شرعية وغير شرعية. وأعني بالشرعية ما استفيد من الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه ولا يرشد العقل إليه مثل الحساب ولا التجربة مثل الطب ولا السماع مثل اللغة. فالعلوم التي ليست بشرعية تنقسم إلى ما هو محمود وإلى ما هو مذموم وإلى ما هو مباح. فالمحمود ما يرتبط به مصالح أمور الدنيا كالطب والحساب. وذلك ينقسم إلى ما هو فرض كفاية وإلى ما هو فضيلة وليس بفريضة. أما فرض الكفاية فهو علم لا يُستغنى عن في قَوام أمور الدنيا كالطب إذ هو ضروري في حاجة بقاء الأبدان وكالحساب فإنه ضروري في المعاملات وقسمة الوصايا والمواريث وغيرهما وهذه العلوم التي لو خلا البلد عمن يقوم بها حَرَج أهل البلد وإذا قام بها واحد كفى وسقط الفرض عن الآخرين. فلا يُتعجب من قولنا إنَّ الطب والحساب من فروض الكفايات. فإنَّ أصول الصناعات أيضا من فروض الكفايات كالفِلاَحة، والحِياكة، والسياسة بل الحِجامة والخياطة " (41).

المبحث الثالث

الرد على طعن الكاتب الصحفي أحمد عبد التواب على أهل العلم لمعاداتهم الملاحدة، والحكم على من مات كافرا بالخلود في النار

يتناول المبحث الحالي بيان مدى صحة الطعن الذي ذهب إليه الكاتب الصحفي أحمد عبد التواب بشأن مسألة التبرؤ من الملاحدة ومعاداتهم، ومسألة الحكم على من مات كافرا بالخلود في النار، وذلك في مطلبين كالآتي:

المطلب الأول

الرد على طعن الكاتب الصحفي أحمد عبد التواب على أهل العلم لمعاداتهم الملاحدة

ذهب الكاتب الصحفي أحمد عبد التواب يطعن على أهل العلم لمعاداتهم للعالم الملحد ستيفن هوكنج، فكتب يقول: "وأعلنوا أنهم يعادونه لأنه أشهر إلحاده ومات كافرا ". وذهب ينحي على أهل العلم باللائمة لأنهم لم يظهروا التقدير لهذا العالم الملحد؛ فكتب يقول: "لم يكن متوقعا ممن يُمجدِّون ابن تيمية ... أن يُظهروا أي تقدير للعالم الفذ ستيفن هوكنج الذي نال احترام العالم أجمع لأبحاثه عن الكون والزمن التي طرحت اجتهادات جسورة هزَّت نظريات ومفاهيم سابقة ".

وهذا الطعن على أهل العلم بمعاداة الملاحدة لا وجه له ولا حجة عليه. فهو مدفوع بما ذهب إليه السلف الصالح بشأن مسألة الولاء والبراء. فالسلف ذهبوا إلى وجوب قطع الموالاة بين المسلمين والكافرين، والبراءة منهم مطلقا؛ سواء أكانوا محاربين أم غير محاربين، وسواء أكانوا مشاركين للمسلمين في النسب أو الجنس أو الوطن أم لا، وسواء أترتب على صلتهم إضرار بالمسلمين أو إخلال بعقيدتهم أم لا (42). أي: أن مفهوم الولاء – عند السلف الصالح- ينحصر في المسلمين فحسب، والبراء يقتصر على الكافرين وما يرتكب من معاص لأوامر اله تعالى ونواهيه.

و" قد دل الكتاب والسنة وإجماع المسلمين على أنه يجب على المسلمين أن يعادوا الكافرين من اليهود والنصارى وسائر المشركين، وأن يحذروا مودتهم، واتخاذهم أولياء " (43) وذلك كالآتي :

فمن الكتاب:

الدليل الأول: قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانةً من دونكم لا يألونَكُم خَبالاً، وَدُّوا ما عَنِتُّم، قد بدتْ البغضاءُ من أفواههم وما تُخفي صدورهم أكبرُ، قد بَيَّنَّا لكم الآياتُ إنْ كنتم تعقلون) (44). يقول الطبري -رحمه الله-: " يعني

بذلك تعالى ذكره: يا أيها الذين صَدَقوا الله ورسولَهُ، وأَقرُّوا بما جاءهُم به نبيُّهُم من عند ربهم (لا تتخذوا بطانة من دونكم)؛ يقول: لا تتخذوا أولياءَ وأصدقاءَ لأنفسكم من دونكم؛ يقول: من دون أهل دينكم ومِلَّتِكُم، يعني من غير المؤمنين ... فنَهَى اللهُ المؤمنين به أن يتخذوا من الكفار أخلاَّءَ أصفياءَ ثم عرَّفَهُم ما هم عليه لهم مُنطوون من الغش، والخيانة، وبَغْيُهُم إياهُم الغوائلَ، فحذَّرَهُم بذلك منهم على مخالفتهم ... وأما قوله: (ودوا ما عنتم)؛ فإنه يعني ودوا عَنَتكم، يقول: يَتَمَنَّوْنَ لكم العَنَتَ والشَّرَّ في دينكم، وما يسوءُكمُ ولا يسُرُّكُم "[45].

ويقول القرطبي-رحمه الله- : " فيه ... مسائل: الأولى: أَكَّدَ اللهُ تعالى الزَّجْرَ عن الركونِ إلى الكفار ... الثانية- نهى الله عز وجلَّ المؤمنين بهذه الآية أنْ يتخذوا من الكفار واليهودِ وأهلِ الأهواءِ دُخلاءَ ووُلَجَاءَ [46]، يفاوضونهم في الآراء، ويُسنِدون إليهم أمورَهُم ... ثم بَيَّنَ تعالى المعنى الذي لأجله نهى عن المواصلة فقال: (لا يألونكم خبالا)؛ يقول فسادا. يعنى لا يتركون الجَهْدَ في فسادكم، يعني إنهم وإن لم يقاتلوكم في الظاهر، فإنهم لا يتركون الجَهْدَ في المكر والخديعة ... الثالثة: (من دونكم)؛ أي:من سواكم ... قوله: (ودوا ما عنتم)؛ أي: ودوا عَنَتَكُم؛ أي: ما يشُقُّ عليكم ... الرابعة: قوله تعالى: (قد بدت البغضاء من أفواههم)؛ يعني ظهرت العداوةُ والتكذيبُ لكم من أفواههم ... قوله تعالى: (وما تخفي صدورهم أكبر)؛ إخبارٌ وإعلامٌ بأنهم يبطنون من البغضاءِ أكثرَ مما يُظهرون بأفواههم"[47].

الدليل الثاني: قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهودَ والنصارى أولياءَ، بعضُهُم أولياءُ بعضٍ، ومَنْ يَتَوَلَّهم منكم فإنه منهم، إنَّ الله لا يهدي القوم الظالمين) [48]. قال القاضي ابن عطية-رحمه الله-: " نهى الله المؤمنين بهذه الآية عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء في النصرة والخُلطة المؤدية إلى الامتزاج والمعاضدة. وحكم هذه الآية باق. وكل من أكثر مخالطة هذين الصنفين فله حظه من هذا المقْت الذي تضمنه قوله تعالى (فإنه منهم). وأما معاملة اليهودي والنصراني من غير مخالطة ولا ملابسة، فلا تدخل في النهي " [49]. وقال القرطبي-رحمه الله-: " فيه مسألتان: الأولى: (لا تتخذوا اليهودَ والنصارى أولياء) مفعولان وهذا يدل على قَطْع الموالاة شرعا ... الثانية: قوله تعالى: (ومن يتولهم منكم)؛ أي: يَعْضُدْهُم على المسلمين (فإنه منهم)؛ بَيَّنَ تعالى أنَّ حُكْمَهُ كحُكمِهِم ... ؛ أي: لأنه قد خالف اللهَ تعالى ورسولَهُ كما خالفوا، ووَجَبَت معاداتُهُ كما وَجَبَت معاداتُهُم " [50].

الدليل الثالث: قوله تعالى: (قد كانت لكم أسوةٌ حسنةٌ في إبراهيم والذين معه، إذ قالوا لقومهم إنَّا بُرَآءُ منكم ومما تعبدون من دون الله، كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوةُ والبغضاءُ أبدًا حتى تؤمنوا بالله وحده) [51]. قال القرطبي-رحمه الله-: " قوله تعالى: (قد كانت لكم أسوةٌ حسنةٌ في إبراهيم)؛ لما نَهى عز وجلَّ عن موالاة الكفار ذكر قصة إبراهيمَ عليه السلامُ، وأنَّ من سيرَتِهِ التبرؤَّ من الكفار، أي: فاقتدوا به، وأْتَمُّوا ... والآيةُ نصٌّ في الأمرِ بالاقتداء بإبراهيمَ عليه السلامُ في فِعْلِهِ ... (كفرنا بكم)؛ أي: بما آمنتم به من الأوثان، وقيلَ: أيْ؛ بأفعالِكم وكَذَّبْنَاها وأنكرنا أنْ تكونوا على حقٍّ. (وبدا بيننا وبينكم البغضاء أبدا)؛ أيْ: هذا دَأْبُنا معكم ما دُمتُم على كفركم (حتى تؤمنوا بالله وحده) فحينئذٍ تنقلب المعاداةُ موالاةً " [52]. ويقول ابن كثير-رحمه الله-: " يقول تعالى لعباده المؤمنين الذين أَمَرَهُم بمُصارمة [53] الكافرين وعدَاوَتِهم ومُجانبتِهم، والتَّبَرِّي منهم: (قد كانت لكم أسوةٌ حسنةٌ في إبراهيم والذين معه)؛ أي: أتباعُه الذين آمنوا معه (إذ قالوا لقومهم إنَّا بُرَآءُ منكم ومما تعبدون من دون الله، كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوةُ والبغضاءُ أبدًا) يعني وقد شُرِعَتِ العداوة والبغضاء من الآن بيننا وبينكم، ما دمتم على كفركم، فنحن أبدا نتبرأ منكم ونُبغِضُكُم (حتى تؤمنوا بالله وحده)؛ أي: إلى أن توَحِّدوا الله، فتعبدوه وحدَهُ لا شريك له، وتخلعوا ما تعبدون معه من الأوثان، والأنداد " [54].

و " الآيات في هذا المعنى كثيرة، وهي تدل دلالة صريحة على وجوب بُغض الكفار من اليهود والنصارى وسائر المشركين، وعلى وجوب معاداتهم حتى يؤمنوا بالله وحده، وتدل أيضا على تحريم مودتهم وموالاتهم وذلك يعني بُغضهم، والحذر من مكائدهم، وما ذاك إلا لكفرهم بالله، وعدائهم لدينه، ومعاداتهم لأوليائه، وكيدهم للإسلام وأهله " (55) وما ينطون عليه من " غشٍّ ... للمسلمين وعداوتِهِم وخيانتهِم وتمنِّيهم السوءَ لهم، ومُعاداةِ الربِّ تعالى لِمَن أَعزَّهُم أو والاهُم أو وَلاَّهُم أمورَ المسلمين " (56).

ومن السنة:

الدليل الأول: عن قَيْسِ بن حازِمٍ، أنَّ عمرَو بن العاص، قال: سمعتُ النبيَّ – صلى الله عليه وسلم – جِهارا غيرَ سِرٍّ يقولُ: " إنَّ آل أَبِي – قال عمرٌو: في كتاب محمدِ بن جعفرٍ بَيَاضٌ – ليسوا بأوليائي، إنما وَلِيِّيَ اللهُ وصالحُ المؤمنينَ "، زادَ عَنْبَسَةُ بنُ عبد الواحدِ، عن بَيَانٍ، وعن قَيْسٍ، عن عمرِو بن العاصِ، قال: سمعتُ النبيَّ – صلى الله عليه وسلم -: " ولكنْ لهم رَحِمٌ أَبُلُّهَا ببَلاَهَا (57) " يعني أَصِلُهَا بصِلَتِها، قال أبو عبدِ اللهِ: " ببَلاَهَا كذا وَقَعَ، وببَلاَلِها أجودُ وأصحُّ، وببَلاَهَا لا أعرف له وجهَا " (58).قال ابن بطال- رحمه-: " قال المهلب: إنَّ آل أبي ليسوا بأوليائي، إنما وليي الله وصالح المؤمنين، فأوجب عليه السلام الولاية بالدين ونفاها عن أهل رحمه، إذ يكونوا من أهل دينه " (59). قال النووي- رحمه الله-: " والغرضُ إنما هو قوله صلى الله عليه وسلمَ إنما وَلِيِّيَ الله وصالحُ المؤمنين ومعناه إنما وليِّيَ مَن كان صالحا وإنْ بَعُدَ نَسَبُهُ مني، وليس وَلِيِّي مَن كان غير صالحٍ وإنْ كان نَسَبُهُ قريبا ... ففيه التبرؤ من المخالفين، وموالاة الصالحين، والإعلان بذلك ما لم يَخَفْ ترتب فتنةٍ عليه والله أعلم " (60). وقال ابن حجر-رحمه الله-: " فائدة الحديث انقطاع الولاية في الدين بين المسلم والكافر ولو كان قريبا حميما"(61).

الدليل الثاني: ما أخرجه أحمد في مسنده عن عن جريرٍ بن عبد الله البَجَلِيِّ قال: قلت يا رسولَ الله، اشترطْ عليَّ، فقال: " تعبدُ اللهَ ولا تشركُ به شيئا، وتصلي الصلاةَ المكتوبةَ، وتؤدي الزكاةَ المفروضةَ، وتَنْصَحُ للمسلمِ، وتَبْرَأُ من الكافرِ " (62). وقوله: (وتبرأ من الكافر) فيه دلالة صريحة على وجوب قطع الموالاة بين المسلمين وبين الكافرين، والتبرؤ منهم. ولذا فإنَّ " الإنسان لا يستقيم له دين ولا إسلام، ولو وَحَّدَ الله وترك الشرك، إلا بعداوة المشركين، والتصريح لهم بالعداوة والبغضاء كما قال تعالى: (لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يُوادُّون من حادَّ اللهَ ورسولَهُ) (63) " (64).

الدليل الثالث: ما رواه أبو داود عن سَمُرَة بن جُنْدُب أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (مَن جامع المشركَ، وسكنَ معه، فإنه مِثْلُهُ) (65). قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب-رحمه الله-: " هذا الحديث على ظاهره؛ وهو: أنَّ الذي يدعي الإسلام، ويكون مع المشركين في الاجتماع والنُصرة، والمنزل معهم، بحيث يعده المشركون منهم، فهو كافر مثلهم، وأن ادعى الإسلام، إلا إنْ كان يظهر دينه، ولا يوالي المشركين " (66). والمراد من إظهار الدين " تصريح بالبراءة من دينهم الذي هو الشرك، وتمسك بدينه الذي هو الإسلام؛ فمن قال ذلك للمشركين ظاهرا، في مجالسهم ومحافلهم وغَشَّاهم (67) به، فقد أظهر دينه ... فمن صرَّح لهم بذلك، فقد أظهر دينه وصرَّح بالعداوة، وهذا هو إظهار الدين، لا كما يظن الجهلة، من أنه إذا تركه الكفار، وخلوا بينه وبين أنْ يصلي، ويقرأ القرآن، ويشتغل بما شاء من النوافل، أنه يصير مُظهرا لدينه. هذا غلط فاحش"(68).

ومن الإجماع:

قال الحَلِيمي-رحمه الله-: " المسلم لا ينبغي له أن يواد كافرا ولو كان أباه أو ابنه أو أخاه. ولا يقاربه ولا يجزيه في الخُلطة والصُحبة مجرى مسلم منه، وإنْ بَعُد. ويجتهد في أنْ لا يكون من قلبه، ولَحْظِهِ [69] ولَفْظِهِ بالميل إليه نصيب، ويكون عليه أشد منه على قاتل أبيه أو وليه " [70].

ويقول ابن تيمية -رحمه الله-: " وليعلَمْ أن المؤمنَ تجبُ موالاتهُ وإن ظلمكَ واعتدى عليك، والكافرُ تجبُ معاداتهُ وإنْ أعطاك وأحسنَ إليك. فإنَّ الله سبحانه بعث الرسل، وأنزل الكتب ليكونَ الدينُ كلُّهُ لله فيكونَ الحبُ لأوليائه، والبغضُ لأعدائه، والإكرامُ لأوليائه والإهانة لأعدائه، والثواب لأوليائه، والعقاب لأعدائه ... هذا هو الأصل الذي اتفق عليه أهل السنة والجماعة " [71].

ويقول ابن القيم-رحمه الله-: " حكم تعالى بأنَّ مَنْ توَلاَّهم [أي: الكفار] فإنه منهم، ولا يَتِمُ الإيمانُ إلا بالبراءةِ منهم، والولايةُ تنافي البَرَاءةَ، فلا تجتمعُ البراءةُ والولايةُ أبدا، والولاية إعزازٌ، فلا تجتمعُ هي وإذلالُ الكفر أبدا، والولايةُ صلةٌ، فلا تُجامِعُ معاداةَ الكافر أبدا " [72].

ويقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب-رحمه الله-: " بحسب المسلم أنْ يعلم: أنَّ الله افترض عليه عداوة المشركين، وعدم موالاتهم، وأوجب عليه محبة المؤمنين وموالاتهم، وأخبر أنَّ ذلك من شروط الإيمان، ونفى الإيمان عمن يواد من حاد الله ورسوله، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم، أو إخوانهم أو عشيرتهم " [73].

ويقول الشيخ ابن باز –رحمه الله-: " فالواجب على المسلم البراءة من أهل الشرك، وبغضهم في الله، ولكن لا يؤذيهم، ولا يضرهم، ولا يتعدى عليهم بغير حق إذا لم يكونوا حربا لنا، لا لا يتخذهم أصحابا، ولا إخوانا " [74].

ويقول الشيخ صالح الفوزان-حفظه الله-: " فمن أصول العقيدة الإسلامية أنه يجب على كل مسلم يدين بهذه العقيدة أنْ يوالي أهلها ويعادي أعداءها؛ فيحب أهل التوحيد والإخلاص ويواليهم، ويبغض أهل الإشراك، ويعاديهم، وذلك من ملة إبراهيم والذين معه، الذين أمرنا بالاقتداء بهم ".

مما سبق من أدلة يتضح وجوب قطع الموالاة بين المسلم والكافر؛ فيجب على المسلم معاداة الكافر لكفره، وإظهار هذه المعاداة إثر إقامة الحجة عليه. وهذه المعاداة فيها مصلحة كل مصلحة للكافر؛ مصلحته الدنيوية والأخروية؛ فهذه المعاداة تعني عدم الرضا عما عليه من كفر، مما يدفعه إلى تأمل حاله، والتدبر في مآله، مما يعزز من احتمالية رجوعه عن ضلاله، والتماسه الحق وفي ذلك نجاته. ولو أُظهر له خلاف ذلك، لظن أنه على الحق، ولظن من نفسه خيرا، وفي هذا هلاكه؛ لأن الكفر سيودي به إلى الهلكة في دنياه وأخراه.

وقطع الموالاة بين المسلم والكافر لا تعنى أنه على المسلم أن يبخس الكافر حقه. كلا؛ فالمسلم مأمور بإعطاء كل ذي حق حقه، ولو كان المعطى كافرا. كما أنَّ هذا لا يعنى تحريم المعاملات الدنيوية بين المسلم والكافر. كلا؛ فيباح للمسلم أن يتعامل مع الكافر -غير المحارب- في المعاملات الدنيوية كالبيع والشراء شريطة ألا يكون هناك انتهاكا لضوابط الشريعة في هذه المعاملات.

المطلب الثاني

الرد على طعن الكاتب الصحفي أحمد عبد التواب على الحكم على من مات كافرا بالخلود في النار

ذهب الكاتب الصحفي أحمد عبد التواب يستهجن الحكم على من مات كافرا بالخلود في النار؛ فكتب يقول: " وقضوا عليه [أي: على العالم الملحد ستيفن هوكنج] بالخلود في بالنار! ولم يشفع له زعمهم بالإيمان الراسخ في حرية العقيدة وأنَّ من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، ولم تخفف له إسهاماته العلمية للإنسانية ولا إضافاته النوعية للتراث المعرفي، ولا موقفه الداعم للفلسطينيين عندما رفض تلبية دعوة إسرائيلية للمشاركة في مؤتمر علمي في الأرض المحتلة، وأصدر بيانا أكد فيه أنَّ امتناعه سياسي ضد ممارسات إسرائيل ".

ويجاب عن ذلك بالآتي:

أولا: قوله: " قضوا عليه [أي: على العالم الملحد ستيفن هوكنج] بالخلود في بالنار! " قول مردود لأنه ليس لأحد- مهما علا شأنه- أنْ يقضي على أحد بالخلود في النار. إنما الذي يقضي بذلك هو الله تعالى في كتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم. ولقد تضافرت الأدلة القطعية من الكتاب والسنة والإجماع والمعقول على أن مات على الكفر لن تقبل منه توبة في الآخرة ومصيره إلى جهنم خالدا مخلدا فيها والعياذ بالله. ومن هذه الأدلة الآتي:

الأدلة من الكتاب:

الدليل الأول: قوله تعالى: (إنَّ اللهَ لا يغفرُ أنْ يُشركَ به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، ومن يُشرك بالله فقد افترى إثما عظيما) (75). قال الطبري-رحمه الله- قي تفسير هذه الآية: " يعني بذلك جل ثناؤه: يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نَزَّلنا مصدقا لما معكم، وإنَّ الله لا يغفرُ أنْ يُشرك به، فإنَّ الله لا يغفرُ الشرك به والكفرَ، ويغفر ما دون ذلك الشركِ لمن يشاءُ من أهل الذنوب والآثام" (76). وقال القرطبي-رحمه الله-: " هذا من المحكم المتفق عليه الذي لا اختلاف فيه بين الأمة " (77).

الدليل الثاني: قال تعالى: (فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين) (78). يقول ابن كثير-رحمه الله-: " قوله تعالى: (أعدت للكافرين)؛ ... أُعدت عائدٌ إلى النار التي وقودها الناسُ والحجارةُ ... وأعدت؛ أي: رُصِدت وحَصَلَت للكافرين بالله ورسوله كما قال ابنُ إسحاق عن محمد عن عكرمة أو سعيد بن جُبير عن ابن عباس: (أعدت للكافرين): أي: لمن كان على مِثل ما أنتم عليه من الكفر " (79).

الدليل الثالث: قوله تعالى: (والذين يُحاجون في الله مِن بعد ما أُستجيب له حُجَّتُهم داحضةٌ عند ربهم وعليهم غضبٌ ولهم عذابٌ شديد) (80). قال القرطبي-رحمه الله-: " قوله تعالى: (والذين يُحاجون في الله)؛ رَجَعَ إلى المشركين. (من بعد ما استجيب له)؛ قال مُجاهد: مِن بعد ما أسلم الناس ... (حُجَّتُهم داحضةٌ عند ربهم)؛ أي: لا ثبات لها كالشيء الذي يَزِلُّ عن موضِعه ... (وعليهم غضبٌ)؛ يريدُ في الدنيا. (ولهم عذابٌ شديد)؛ يريد في الآخرة عذابٌ دائم " (81).

الدليل الرابع: قوله تعالى: (إنَّ المجرمين في عذاب جهنمَ خالدون، لا يُفَتَّرُ عنهم وهم فيه مُبلسون، وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين) (82)؛ يقول ابن كثير-رحمه الله-: " لما ذكر تعالى حالَ السعداء ثَنَّى بذكر الأشقياء فقال: إنَّ المجرمين في عذاب جهنمَ خالدون لا يُفتَّرُ عنهم أيْ ساعةً واحدةً وهم فيه مُبلسون أي آيسون من كلِّ خير. وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين؛ أي بأعمالهم السيئة بعد قيام الحُجج عليهم وإرسال الرسل إليهم، فكذبوا وعَصَوا فجوزوا بذلك جزاءًا وفاقا وما ربك بظلام للعبيد " (83).

الدليل الخامس: قوله تعالى: (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون، ثم إنهم لصالوا الجحيم) (84)؛ قال القرطبي-رحمه الله-: " قوله تعالى (كلا إنهم)؛ أي حقا إنهم يعني الكفار (عن ربهم يومئذ)؛ أي: يوم القيامة (لمحجوبون) ... فأعلَمَ الله —جل ثناؤه- أنَّ المؤمنين ينظرون إليه، وأَعلَمَ أنَّ الكفار محجوبون عنه ... قال قتادةُ: هو أنَّ الله لا ينظر إليهم برحمته، ولا يزكيهم، ولهم

عذاب أليم. (ثم إنهم لصالوا الجحيم)؛ أي: ملازموها، ومحترقون فيها غير خارجين منها (كلما نَضِجَت جلودُهم بدلناهم جلودًا غيرَها) (85)، (كلما خَبَت زدناهم سعيرا) (86) " (87).

الأدلة من السنة:

الدليل الأول: ما أخرجه مسلم –في صحيحه - عن أبي هريرةَ-رضي الله عنه-، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قالَ: (والذي نَفْسُ محمدٍ بيدِهِ، لا يسمعُ بي أحدٌ من هذه الأمةِ، يهوديٌّ، ولا نصرانيٌّ، ثم يموتُ، ولم يؤمنْ بالذي أُرسلتُ به، إلا كان مِنْ أصحابِ النار) (88). وفي الحديث " نَسْخُ المِلَل كلِّها برسالة نبينا صلى الله عليه وسلم " (89). "وقوله صلى الله عليه وسلم (لا يسمعُ بي أحدٌ من هذه الأمةِ)؛ أي: مَن هو موجود في زَمني وبعدي إلى يوم القيامة، فكلُّهم يجب عليهم الدخول في طاعته، وإنما ذكر اليهوديَّ والنصرانيَّ تنبيها على مَنْ سِواهما، وذلك لأن اليهودَ والنصاري لهم كتابٌ، فإذا كان هذا شأنَهُم مع أنَّ لهم كتابًا فغيرُهم ممن لا كتاب له أولى والله أعلم " (90). وفي ذلك دلالة صريحة على أنَّ من مات على الكفر، فإنَّ مآله إلى النار أعاذنا الله منها.

الدليل الثاني: عن جابر بن عبد الله –رضي الله عنهما- قال: سمعتُ رسول الله صلى اللهُ عليه وسلمَ يقولُ: (مَنْ لَقِيَ اللهَ لا يشركُ به شيئًا دخلَ الجنة، ومَنْ لَقِيَهُ يشركُ به دخلَ النار) (91). قال النووي-رحمه الله- في شرحه لهذا الحديث: " أما حُكمهُ صلى الله عليه وسلم على من مات يشركُ بدخول النار ومن مات غيرَ مشركٍ بدخول الجنة، فقد أجمع عليه المسلمون؛ فأما دخول المشركِ النار فهو على عمومه فيدخلها ويَخْلُدُ فيها ولا فرق فيه بين الكتابي اليهوديِّ والنصرانيِّ وبين عَبَدةِ الأوثان وسائرِ الكَفَرة ولا فرق عند أهل الحق بين الكافر عنادًا وغيرِهِ ولا بين مَن خالف ملَّةَ الإسلام وبين مَن انتسب إليها ثم حُكِم بكفره بجَحْدِهِ ما يَكْفُرُ بجَحْدِهِ وغير ذلك. وأما دخول من مات غيرَ مشركٍ الجنةَ فهو مقطوعٌ له به لكن إنْ لم يكن صاحبَ كبيرةٍ مات مُصرًّا عليها دخل الجنة أولا. وإنْ كان صاحب كبيرةٍ مات مُصرًّا عليها فهو تحت المشيئة؛ فإنْ عُفي عنه دخل أولا وإلا عُذِّبَ ثم أُخرجِ من التار وخُلِّدَ في الجنة " (92).

الدليل من الإجماع:

من الأصول التي أجمعت عليها الأمة – سلفا وخلفا- أنَّ من مات على الكفر فهو مخلد في النار (93). ويبين ذلك أقوال الأئمة كالآتي:

قال أبو حنيفة-رحمه الله-: " مَنْ قال لا أدري الكافر أهو في الجنة أو في النار فهو كافر لقوله تعالى: (والذين كفروا لهم نارُ جهنم لا يُقضى عليهم فيموتوا) (94)، وقال: (ولهم عذاب الحريق) (95)، وقال الله تعالى: (ولهم عذابٌ شديد) (96) " (97)، وقال-رحمه الله-: " بلغني عن سعيد بن المسَيَّب أنه قال: مَنْ لم يُنَزِّل الكفار مَنزِلَهم من النار فهو مثلُهم " (98).

وقال المزَني-رحمه الله-: " عُقبى الكافرين النار وأهلُ الجَحْد (عن ربهم يومئذ لمحجوبون) (99)، وفي النار يُسجرون (100)، (لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أنْ سَخِط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون) (101)، (ولا يُقضى عليهم فيموتوا ولا يُخفف عنهم من عذابها كذلك نجزي كل كفور) (102)؛ الآية خلا مَن شاء الله من الموحدين إخراجهم منها " (103).

وقال ابن أبي زَمَنِين-رحمه الله-: " مِن قول أهلِ السنة أنَّ الوعدَ فضلُ الله عز وجلَّ ونِعمَتُهُ، والوعيدَ عدلُه وعقوبَتُهُ، وأنه جعل الجنةَ دارَ المطيعين بلا استثناءٍ، وجهنمَ دارَ الكافرين بلا استثناءٍ ... قال في العُصاة والكافرين: (ومن يعص الله ورسولَهُ ويتعدَّ حدودَهُ يُدخِلْهُ نارا خالدا فيها وله عذابٌ مُهين) (104)، وقال: (إنَّ الذين كفروا بآياتنا سوف نُصليهم نارا كلما

نَضِجَتْ جلودُهم بدلناهم جلودًا غيرَها ليذوقوا العذابَ إن الله كان عزيزا حكيما) [105]؛ فوعده تبارك وتعالى للمؤمنين المطيعين صدقٌ، ووعيده للكفار والمشركينَ حقٌ " [106].

وقال الحَلِيمي -رحمه الله-: " باب في أنَّ دار المؤمنين ومآبهم الجنة ودار الكافرين ومآبهم النار. قال الله جل ثناؤه: (بلى من كَسَبَ سيئً وأحاطت به خطيئتُه فأولئك أصحابُ النار هم فيها خالدون، والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون) [107] " [108].

وقال الغزنوي الحنفي -رحمه الله-: " الفاسقُ لا يُخلد في النار لأنَّ الخلود للكفار وهو مؤمنٌ مُصدقٌ " [109].

وقال النووي -رحمه الله-: " اعلم أن مذهبَ أهل السنة وما عليه أهلُ الحق من السلف والخلف أنَّ من مات موحدا دخل الجنة قطعا على كل حال؛ فإن كان سالما من المعاصي كالصغير والمجنون والذي اتصل جنونُه بالبلوغ والتائب توبة صحيحة من الشرك أو غيرِه من المعاصي ... فكلٌّ هذا الصنف يدخلون الجنة ولا يدخلون النار أصلا ... وأما من كانت له معصيةٌ كبيرةٌ ومات من غيرِ توبةٍ فهو في مشيئة الله تعالى؛ فإنْ شاء عفا عنه وأدخله الجنة أولا وجعله كالقسم الأولِ وإنْ شاء عذَّبَهُ القَدْرَ الذي يريده سبحانه وتعالى ثم يدخِلُهُ الجنة فلا يَخْلُد في النار أحدٌ مات على التوحيد ولو عَمِل من المعاصي ما عَمِل كما أنه لا يدخلُ الجنة أحدٌ مات على الكفر ولو عَمِل من أعمال البرِّ ما عَمِل. هذا مختصرٌ جامعٌ لمذهب أهل الحق في هذه المسألة، وقد تظاهرت أدلةُ الكتاب، والسنة، وإجماع ما يعتدُ به من الأمة على هذه القاعدةِ، وتواترت بذلك نصوصٌ تُحَصِّلُ العلمَ القطعي " [110].

وقال الشيخ ابن العطار -رحمه الله-: "كان الشيخ الإمام أبو الطيب سهل بن محمد الصُعلوكي -رحمه الله- يقول: المؤمن المذنب وإنْ عُذِّب بالنار فإنه لا يُلقَى فيها إلقاء الكفار، ولا يَلْقى فيها لقاء الكفار، ولا يشقى فيها شقاء الكفار، ولا يبقى فيها بقاء الكفار ... معنى ذلك أن الكافرَ يُجر على وجهه إلى النار ثم يُلقى في النار منكوسا في السلاسل والأغلال، والأنكال الثِقال. والمؤمن المذنب إذا أُبتلي بالنار؛ فإنه يدخل كما يدخل المجرم السجنَ في الدنيا على الرِّجْل من غير تنكيس وإلقاء. ومعنى قوله: لا يَلْقى من النار لقاء الكفار: أنَّ الكافر يُحرق بدنه كله، وكلما نَضُج جِلْدُه، بُدِّل جِلْدًا غيره ليذوق العذاب، وأما المؤمنون فلا تلفح وجوههم النار، ولا تحرق أعضاء السجود منهم، وحَرَّم الله على النار أعضاء سجوده. ومعنى قوله: لا يبقى في النار بقاءَ الكفار: أنَّ الكافر يخلّد ولا يخرج منها أبدا، ولا يُخلِّد الله من مُذنبي المؤمنين أحدا " [111].

وقال السفاريني الحنبلي: " قال القرطبي كغيره من أهل العلم: إنَّ الله سبحانه يكلم المسلمين عند الحساب من غير تُرجمان إكراما لهم ولا يكلم الكافرين، بل تحاسبهم الملائكة إهانة لهم وتمييزا لأهل الكرامة، فإذا خلصوا من الحساب وصاروا إما إلى الجنة وإما إلى النار وهي – يعني النار- دار الكفار بالأصالة. وربما دخلها طوائف من المسلمين من أهل المعاصي وكبائر الذنوب فيعذبون فيها بذنوبهم، ثم تدركهم رحمة أرحم الراحمين وشفاعة النبيين والصديقين فيخرجون منها " [112].

الدليل من المعقول:

أنه مما تأباه الفطر السليمة أن يستوي من يعمل للآخرة بمن لا يعمل لها. فلا يعقل أن يستوي من يوحد الله حق توحيده ويعبده حق عبادته؛ فيصلي ويصوم ويحج ويؤدي ما افترضه الله عليه، وينتهي عما نهاه الله عنه؛ ويصبر على المكاره وقد جُبل على الرغبة عنها، ويصبر عن الشهوات وقد جُبل على الرغبة فيها، فلا يعقل أن يستوي بمن أنكر خالقه، وجحد حقه في العبادة، واتبع هواه، وانقاد لشهواته وملذاته، واستحب دنياه على آخرته، فكانت دنياه منتهى علمه، وكانت دنياه منتهى أمله. فلا يتصور أن يستوى هذا بذاك. فالطباع السليمة تقر بأن العدالة تقتضي بمكافأة الأول من جنس عمله؛ فقد عمل

واجتهد لله تعالى؛ مرضاة له تعالى وامتثالا لأوامره ونواهيه؛ ولذا فجزاؤه ما ادخره الله تعالى له وهو الجنة. والثاني جحد ربه، وجحد حقه في الربوبية والعبادة، وانقاد لهواه، فلا يستقيم أن يكون مصيره الجنة. ولما اتبع هواه وكفر بالله خَبُثَت نفسه، وما خَبُث لا يستقيم له إلا النار.

ثانيا: استدلاله بقوله تعالى: (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) (113) ليس في محله لأنه حجةٌ عليه وليس حجة له. وذلك لأن قوله تعالى (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) (114) ليس المراد منه التخيير بين الإيمان والكفر، ولكن " هذا وعيد " (115). قال القرطبي-رحمه الله- في معرض تفسيره لهذه الآية: " ليس هذا بترخيصٍ وتخيير بين الإيمان والكفر، وإنما هو وعيد وتهديد. أي: إنْ كفرتم فقد أعدَّ لكم النار، وإن آمنتم فلكم الجنة " (116).

ثالثا: قوله: " ولم تخفف له [أي: على العالم الملحد ستيفن هوكنج] إسهاماته العلمية للإنسانية ولا إضافاته النوعية للتراث المعرفي، ولا موقفه الداعم للفلسطينيين ... ". يجاب عنه: بأنَّ الله تعالى لا يظلم أحدا مثقال ذرة (وما ربك بظلام للعبيد) (117). فمع أن هذا العالم الملحد أنكر خالقه وجحد ربه الذي أنعم عليه بنعمة العبقرية في مجال تخصصه إلا أنَّ الله تعالى لم يبخسه حقه. فهذا العالم الملحد قد عمل لدنياه. وما قدمه من نفع في الدنيا، وفَّاه الله تعالى جزاء هذا العمل في الدنيا من دون أن يُنقَص منه شيء. قال تعالى: (من كان يريد الحياة الدنيا وزينَتَها نُوَفِّ إليهم أعمالَهُم فيها وهم فيها لا يُبخسون، أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحَبِطَ ما صنعوا فيها وباطلٌ ما كانوا يعملون) (118). قال ابن كثير-رحمه الله-: " قال قتادة: مَن كانت الدنيا همَّهُ ونيَّتَهُ وطَلِبَتَهُ (119) جازاه الله بحسناته في الدنيا ثم يُفضي إلى الآخرة وليس له حسنةٌ يُعطَى بها جزاءً، وأما المؤمنُ فيجازى بحسناته في الدنيا ويثابُ عليها في الآخرة " (120).

وقال تعالى: (والذين كفروا أعمالُهم كسراب بقِيعة يحسَبُهُ الظمآنُ ماءً حتى إذا جاءهُ لم يَجِدْهُ شيئا ووجد اللهَ عنده فوفَّاه حسابَهُ واللهُ سريعُ الحساب) (121). قال القرطبي-رحمه الله-: " هذا مَثَل ضَرَبَه اللهُ تعالى للكفار يُعوِّلون على ثواب أعمالِهم فإذا قَدِموا على الله تعالى وجدوا ثوابَ أعمالهم مُحبَطَةً بالكفر، أي: لم يجدوا شيئا كما لم يجد صاحب السراب إلا أرضا لا ماء فيها، فهو يهلكُ أو يموت، (ووجد الله عنده)؛ أي: وجد اللهَ بالمرصاد. (فوفَّاه حسابَهُ)؛ أي: جزاءَ عملِهِ " (122).

وقال تعالى: (وقَدِمنا إلى ما عَمِلوا مِن عَمَلٍ فجعلناه هباءً منثورا) (123). قال القرطبي-رحمه الله-: " قوله تعالى (وقَدِمنا إلى ما عَمِلوا من عمل)؛ ... أي قَصَدنا إلى ما كان يعمله المجرمون من عملِ بِرٍّ عند أنفسهم (فجعلناه هباءً منثورا)؛ أي: لا يُنفَع به، أي: أبطلناه بالكفر " (124).

وعن عائشةَ-رضي الله عنها- قلتُ: يا رسولَ اللهِ، ابنُ جُدْعانَ (125) كان في الجاهليةِ يَصِلُ الرَّحِمَ، ويُطعِمُ المسكينَ، فهل ذاك نافعُهُ؟ قال: " لا ينفَعُهُ، إنه لم يَقُلْ يوما: ربِّ اغفر لي خطيئتي يومَ الدين " (126). قال النووي-رحمه الله-: " معنى هذا الحديث: أنَّ ما كان يفعَلُهُ من الصلة والإطعام ووجوه المكارم لا ينفعُهُ في الآخرة لكونه كافرا، وهو معنى قوله صلى الله عليه وسلم لم يقل ربِّ اغفر لي خطيئتي يومَ الدين؛ أي: لم يكن مُصدِّقا بالبعث، ومن لم يصدِّق به كافر، ولا ينفعُهُ عملٌ " (127). وقال القاضي عياض-رحمه الله-: " وقد انعقد الإجماعُ على أنَّ الكفارَ لا تنفعُهُم أعمالُهُم ولا يُثابون عليها بنعيمٍ ولا تخفيفِ عذابٍ لكن بعضُهم أشدُّ عذابا من بعضٍ بحسب جرائمهم " (128).

الخاتمة

استهدفت الدراسة بيان مدى صحة الدعوى التي ذهب إليها الكاتب الصحفي أحمد عبد التواب بشأن ما نسبه إلى شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله- وما نسبه لأهل العلم من تحريم علم الكيمياء وعلم الطبيعة. كما استهدفت بيان مدى دلالة الأدلة التي استند إليها للتدليل على صحة دعواه. وأسفرت الدراسة عن العديد من النتائج أهمها:

أولا: الادعاء بأن شيخ الإسلام ابن تيمية-رحمه الله- ذهب إلى تحريم علم الكيمياء ادعاء باطل. فلم يحرِّم شيخ الإسلام ابن تيمية علم الكيمياء ولا حرَّم غيره من العلوم الدنيوية النافعة. فما ذهب إليه – وهو الصحيح- تحريم استغلال هذه العلم وغيره من العلوم في التوصل بها إلى محرم.

ثانيا: الادعاء بأنَّ أهل العلم الشرعي ذهبوا إلى تحريم علم الطبيعة (الفيزياء) كما حرَّموا الكيمياء لا أصل له ولا سند عليه. فلم يُنقل عن أحد من أهل العلم الشرعي –سلفا وخلفا- أنه قال بتحريم علم الكيمياء وتحريم علم الطبيعة (الفيزياء)، أو غيرهما من العلوم الدنيوية النافعة.

ثالثا: أنَّ تعلم العلوم الدنيوية النافعة – بما فيها الكيمياء والفيزياء- من فروض الكفاية التي يجب على المسلمين القيام بها وذلك لاستيفاء حاجة الأمة منها، وإغنائها عن عدوها.

رابعا: أنَّ الطعن على أهل العلم بمعاداة الملاحدة لا وجه له ولا حجة عليه. وهو مدفوع بما ذهب إليه السلف الصالح من وجوب قطع الموالاة بين المسلمين والكافرين، والبراءة من الكفار. وقطع الموالاة بين المسلم والكافر لا تعني أنْ يُبخَس الكافر حقه؛ بل على النقيض من ذلك؛ فإنَّ المسلم مأمور بالبر والإحسان إلى الكافر ما لم يكن محاربا.

خامسا: أنَّ الأدلة القطعية من الكتاب والسنة والإجماع والمعقول قد تضافرت على أن مات كافرا لن تقبل منه توبة في الآخرة ومصيره إلى جهنم خالدا مخلدا فيها والعياذ بالله. ومن اعتقد أو قال– تلميحا أو تصريحا- بخلاف ذلك فهو على خطر عظيم.

وبناءً على ما أسفرت عنه الدراسة من نتائج، توصي الدراسة بتبصير الأفراد بما قدمه شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله- من جهود بارزة في خدمة الإسلام والمسلمين، وما يحتله من مكانة مرموقة بين أئمة الإسلام سلفا وخلفا، وتحذيرهم من الاغترار بما يروجه أهل الأهواء من دعاوى زائفة- بين الحين والآخر - للنيل من أئمة الأمة الأعلام.

مراجع الدراسة:

- ابن الأثير، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري، المتوفي سنة (606هـ). (1399هـ-1979م). النهاية في غريب الحديث والأثر، د. ط.، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، بيروت، المكتبة العلمية.
- أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، المتوفي سنة (241هـ). (1421هـ-2001م). مسند الإمام أحمد بن حنبل، ط1، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد وآخرون، إشراف: عبد الله بن عبد المحسن التركي، بيروت، مؤسسة الرسالة.
- الألباني، محمد ناصر الدين، المتوفي سنة (1420هـ). (1421هـ-2000م). صحيح الترغيب، والترهيب، خطبة الحاجة التي كان رسول الله صلي الله عليه وسلم يعلمها أصحابه، ط1، الرياض: مكتبة المعارف.

- الألباني، محمد ناصر الدين، المتوفي سنة (1420هـ). (د. ت.). صحيح وضعيف سنن أبي داود، د. ط.، الإسكندرية، مركز نور الإسلام لأبحاث القرآن والسنة.
- ابن باز، عبد العزيز بن عبد الله، المتوفي سنة (1420هـ). (د. ت.). مجموع الفتاوى، د. ط.، جمع وطبع: محمد بن سعد الشويعر، الرياض، د. ن.
- البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله الجُعفي، المتوفي سنة (256هـ). (1422هـ). صحيح البخاري، ط1، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دمشق: دار طوق النجاة.
- ابن تغري بردي، يوسف بن عبد الله الظاهري الحنفي، أبو المحاسن جمال الدين، المتوفي سنة (874هـ). (د. ت.). النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، د. ط.، القاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب.
- ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم الحراني، المتوفي سنة (728هـ). (1416هـ-1995م). مجموع الفتاوى، تحقيق: محمد بن عبد الرحمن بن قاسم، د. ط.، المدينة النبوية، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.
- ابن حجر، أحمد بن علي أبو الفضل العسقلاني، المتوفي سنة (852هـ). (1379هـ). فتح الباري شرح صحيح البخاري، د. ط.، ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، تصحيح: محب الدين الخطيب، تعليق: عبد الله بن عبد العزيز بن باز، بيروت: دار المعرفة.
- ابن حجر، أحمد بن علي أبو الفضل العسقلاني، المتوفي سنة (852هـ). (1392هـ-1972م). الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق: محمد عبد المعيد ضان، ط2، حيدر آباد، الهند، مجلس دائرة المعارف العثمانية.
- الحليمي، الحسين بن الحسن بن محمد بن حليم البخاري الجرجاني، أبو عبد الله، المتوفي سنة (403هـ). (1399هـ-1979م). المنهاج في شعب الإيمان، ط1، تحقيق: حلمي محمد فودة، بيروت، دار الفكر.
- أبو حنيفة النعمان، المتوفي سنة (150هـ). (1419هـ-1999م). الفقه الأكبر، ط1، الإمارات العربية، مكتبة الفرقان.
- أبو داود، سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السَّجِستاني، المتوفي سنة (275هـ). (د. ت.). سنن أبي داود، د. ط.، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، صيدا-بيروت، المكتبة العصرية.
- الداوودي، الحافظ شمس الدين محمد بن على بن أحمد، المتوفى سنة (945هـ)، طبقات المفسرين تحقيق: لجنة من العلماء، بيروت، دار الكتب العلمية.
- الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قيماز الذهبي، المتوفي سنة (748هـ). (1419هـ-1998م). تذكرة الحفاظ، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية.
- الرازي، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي، المتوفي سنة (666هـ). (1420هـ-1999م). مختار الصحاح، ط5، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، بيروت- صيدا: المكتبة العصرية – الدار النموذجية.

- ابن أبي زَمَنين، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عيسى بن محمد المري المالكي، المتوفي سنة (399هـ). (1415هـ). أصول السنة، تحقيق: عبد الله بن محمد عبد الرحيم بن حسين البخاري، المدينة النبوية، مكتبة الغرباء الأثرية.
- ابن رجب الحنبلي، زين الدين أبو عبد الرحمن بن أحمد بن الحسن السَّلاَمي البغدادي، المتوفي سنة (795هـ). (1425هـ-1995م). ذيل طبقات الحنابلة، تحقيق: عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، ط1، الرياض، مكتبة العبيكان.
- السفاريني الحنبلي، محمد بن أحمد بن سالم، المتوفي سنة (1188هـ). (1415هـ-1994م). لوائح الأنوار السنية ولواقح الأفكار السنية، تحقيق: عبد الله بن محمد بن سليمان البصيري، ط1، الرياض، مكتبة الرشد.
- الشوكاني، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله اليمني، المتوفي سنة (1250هـ). (د. ت.). البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، د. ط.، بيروت، دار المعرفة.
- الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي أبو جعفر، المتوفي سنة (310هـ). (1422هـ-2001م). جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ط1، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي بالتعاون مع مركز الدراسات والبحوث الإسلامية بدار هجر؛ الدكتور عبد السند حسن يمامة، القاهرة، دار هجر.
- ابن العطار، علي بن إبراهيم بن داود بن سلمان بن سليمان، أبو الحسن علاء الدين، المتوفي سنة (724هـ). (1432هـ-2011م). الاعتقاد الخالص من الشك والانتقاد، تحقيق: سعد بن هُليل الزويهري، ط1، قطر، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية.
- ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام الأندلسي المحاربي، المتوفي سنة (542هـ). (1422هـ). المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ط1، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، بيروت، دار الكتب العلمية.
- علماء نجد الأعلام، (1417هـ-1996م). الدرر السنية في الأجوبة النجدية، ط6، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، الرياض، د. ن.
- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد الطوسي، المتوفي سنة (505هـ). إحياء علوم الدين، د. ط.، بيروت، دار المعرفة.
- الغزنوي الحنفي، جمال الدين أحمد بن محمد بن سعيد، المتوفي سنة (593هـ). (1419هـ-1998م). أصول الدين، تحقيق: عمر وفيق الداعوق، ط1، بيروت، دار البشائر الإسلامية.
- الفيومي، أحمد بن محمد بن علي، أبو العباس، المتوفي سنة (770هـ). (د. ت.). المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، د. ط.، بيروت، المكتبة العلمية.
- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين، المتوفي سنة (671هـ). (1384هـ- 1964م). الجامع لأحكام القرآن، ط2، تحقيق: أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش، القاهرة، درا الكتب المصرية.

- ابن القيم، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن شمس الدين ابن قيم الجوزية، المتوفي سنة (751هـ). (1418هـ-1997م). أحكام أهل الذمة، ط1، تحقيق: يوسف بن أحمد البكري وشاكر بن توفيق العاروري، الدمام، رمادي للنشر.
- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي البصري الدمشقي، المتوفي سنة (774هـ). (1418هـ-1997م). البداية، والنهاية، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، القاهرة، دار هَجَر.
- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي البصري الدمشقي، المتوفي سنة (774هـ). (1419هـ). تفسير القرآن العظيم، ط1، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية.
- اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء، فتاوى اللجنة الدائمة، جمع وترتيب: أحمد بن عبد الرزاق الدويش، د. ط.، الرياض، رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء.
- المزني، إسماعيل بن يحيي بن إسماعيل أبو إبراهيم، المتوفي سنة (264هـ). (1415هـ-1995). شرح السنة، تحقيق: جمال عزون، ط1، السعودية، مكتبة الغرباء الأثرية.
- مسلم، أبو الحسن بن الحجاج القشيري النيسابوري، المتوفي سنة (261هـ). (د. ت.). صحيح مسلم، د. ط.، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار إحياء التراث العربي.
- ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل، جمال الدين الأنصاري الرويفعي الإفريقي، المتوفي سنة (711هـ). (1414هـ). لسان العرب، ط3، بيروت، دار صادر.
- النووي، أبو زكريا محيي الدين يحيي بن شرف، المتوفي سنة (676هـ). (1392هـ). المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، ط2، بيروت: دار إحياء التراث العربي.

ملحق





أحمد عبد التواب

لم يكن متوقعاً مِمن يُمجدِّون ابن تيمية ويعتمدون له لقب «شيخ الإسلام» ويستوحون منه ما عليهم أن يفعلوه أو أن يجتنبوه، أن يُظهِروا أى تقدير للعالِم الفذ ستيفين هوكنج الذى نال احترام العالم أجمع لأبحاثه عن الكون والزمن التى طرحت اجتهادات جسورة هزّت نظريات ومفاهيم سابقة. فمن النصوص الرائجة هذه الأيام نقلاً عن أحد كتب الشيخ، قوله إن الكيمياء أشد تحريماً من الربا، وإن أهل الكيمياء من أعظم الناس غشاً! وأما حجته فهى أنه لم يكن فى أهل الكيمياء أحد من الأنبياء، ولا من علماء الدين، ولا من مشايخ المسلمين، ولا من الصحابة، ولا من التابعين لهم! وأما هوكنج الذى تخصَّص فى الفيزياء النظرية، وهو علم لا يقل ضلالة فى عُرفهم من الكيمياء، فقد شنوا عليه هجوماً ضارياً فور إذاعة خبر وفاته، وأعلنوا أنهم

يعادونه لأنه أشهر إلحاده ومات كافراً، وقضوا عليه بالخلود فى النار! ولم يشفع له زعمهم بالإيمان الراسخ فى حرية العقيدة وأن من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، ولم تخفف له إسهاماته العلمية للإنسانية ولا إضافاته النوعية للتراث المعرفى، ولا موقفه الداعم للفلسطينيين عندما رفض تلبية دعوة إسرائيلية للمشاركة فى مؤتمر علمى فى الأرض المحتلة، وأصدر بياناً أكد فيه أن امتناعه سياسى ضد ممارسات إسرائيل.

وبعد كل هذا فإن غلاظ القلوب الذين لا يحترمون الموت لم تهتز مشاعرهم لرجل عاش منذ أن كان عمره 21 عاماً، وحتى وفاته فى السادسة والسبعين، مقعداً مصاباً بواحد من أفتك الأمراض دمَّر الشبكات العصبية فى جسده واخترق الحبل الشوكى، وضربه بشلل كامل أعجزه عن الحركة والنطق! ولكن هذا لم يمنعه عن مواصلة العمل الدؤوب، وأثبت أن أعطاب الجسد لا تنال من العقل العبقرى الذى ظل فى كامل كفاءته، حتى صار مُلهِماً لكل الباحثين ولكل المرضى، وأثبت أنه ليس هنالك مبرر للتقاعس عن العمل وعن إبداء الرأى عندما تحدق الأخطار.

ولكن هناك من قرَّروا أن يُغلقوا عقولهم وقلوبهم ليس كراهية فى رجل لا يفقهون حرفاً من إنجازاته، ولكن خوفاً منهم أن ينتشر أثر العلم والعلماء والمنهج العلمى. [129]

الهوامش

([1]) سورة آل عمران، الآية: 102.

([2]) سورة النساء، الآية: 1.

([3]) سورة الأحزاب، الآية: 70.

([4]) صحيح الترغيب، والترهيب، خطبة الحاجة التي كان رسول الله صلي الله عليه وسلم يعلمها أصحابه، الألباني، ط1، ص3.

([5]) انظر نص المقال، وبيانات نشره؛ ملحق الدراسة ص 37.

([6]) ابن منظور، لسان العرب، ط3، ج3، باب: الدال، فصل: اللام، ص388.

([7]) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ط1، ج3، ص466.

([8]) ابن منظور، لسان العرب، ط3، ج10، باب: القاف، فصل: الزاي، ص147.

([9]) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، د. ط.، ج4، ص115.

([10]) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، د. ط.، ج4، ص210-211.

([11]) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، د. ط.، ج29، ص368.

([12]) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، د. ط.، ج29، ص385.

([13]) رواه أبو داود من حديث أبي هريرة، وصححه الألباني. ورواية أبي داود بلفظ: (أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم مرَّ برجلٍ يبيع طعاما فسألَهُ: كيف تبيع؟ فأخبَرَهُ، فأوحى إليه أنْ أَدْخِل يَدَكَ فيه، فإذا هو مَبلول. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ليس منا مَنْ غَشَّ). يراجع: أبو داود، سنن أبي داود، د. ط.، ج3، كتاب: الإجارة، باب: النهي عن الغش، الحديث رقم (3452)، ص272، والألباني، صحيح وضعيف سنن أبي داود، د. ط.، ج1، ص 220.

([14]) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، د. ط.، ج29، ص369.

([15]) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، د. ط.، ج29، ص370.

([16]) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، د. ط.، ج29، ص371.

([17]) ابن حجر، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ط2، ج1، ص179.

([18]) ابن حجر، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ط2، ج1، ص179.

(19) ابن حجر، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ط2، ج1، ص179.

(20) الذهبي، تذكرة الحفاظ، ط1، ج4، ص192.

(21) ابن حجر، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ط2، ج1، ص186.

(22) ابن كثير، البداية والنهاية، ط1، ج17، ص451.

(23) ابن رجب الحنبلي، ذيل طبقات الحنابلة، ط1، ج4، ص497-498.

(24) النِّحَل مفرد نِحْلة، والنِّحْلة: الدَّعْوى. يقال: انتحل فلانٌ شِعْر غيرِه أو قَولَ غيرِه إذا ادَّعاهُ لنَفْسِهِ. وفُلانٌ ينتحل مذهبَ كذا، وقبيلَةَ كذا إذا انتسب إليه. يراجع: الرازي، مختار الصحاح، ط5، ج1، باب: النون، ص306.

(25) ابن رجب الحنبلي، ذيل طبقات الحنابلة، ط1، ج4، ص500.

(26) ابن رجب الحنبلي، ذيل طبقات الحنابلة، ط1، ج4، ص493- 495.

(27) الجَنَانُ: القَلْبُ. يراجع: الرازي، مختار الصحاح، ط5، ج1، باب: الجيم، ص62.

(28) الشَظَفُ: الشِدَّةُ. يراجع: : ابن منظور، لسان العرب، ط3، ج9، باب: الفاء، فصل: الشين المعجمة، ص176.

(29) الشُّنُوف: الفِّطْنَةُ. يقال: شَنِفَ له وبه: فَطِنَ له، وفَطِنَ به. يراجع: ابن منظور، لسان العرب، ط3، ج9، باب: الفاء، فصل: الشين المعجمة، ص184.

(30) ابن حجر، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ط2، ج1، ص168-177.

(31) ابن نغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، د. ط.، ج9، ص272.

(32) الداوودي، طبقات المفسرين، د. ط.، ج1، ص46.

(33) الشوكاني، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، د. ط.، ج1، ص72.

(34) اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء، فتاوى اللجنة الدائمة، د. ط.، ج12، ص70، ص77.

(35) سورة هود، من الآية 61.

(36) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ط2، ج9، ص56.

(37) سورة المجادلة، من الآية 11.

(38) اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء، فتاوى اللجنة الدائمة، د. ط.، ج12، ص77.

(39)" قوله صلى الله عليه وسلم (تُعِينُ صانعًا أو تصنعُ لأخرقَ)؛ الأخرقُ هو الذي ليس بصانعٍ، يقالُ رجلٌ أخرقٌ وامرأةٌ خَرقاء لِمن لا صَنْعةَ له ". يراجع: النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، ط2، ج2، ص75.

(40) مسلم، صحيح مسلم، د. ط.، ج1، كتاب: الإيمان، باب: كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال، الحديث رقم (84)، ص89.

(41) الغزالي، إحياء علوم الدين، د. ط.، ج1، ص16.

(42) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، د. ط.، ج28، ص209، وعلماء نجد الأعلام، الدرر السنية في الأجوبة النجدية، ط6، ج8، ص166، وابن باز، مجموع الفتاوى، د. ط.، ج2، ص178.

(43) ابن باز، مجموع الفتاوى، د. ط.، ج2، ص178.

(44) سورة آل عمران، الآية 118.

(45) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ط1، ج5، ص709.

(46) وُلَجَاء: مفرد وَلِيجةُ الرَّجُل: خاصَّتُهُ وبِطانَتُه. يراجع: الرازي، مختار الصحاح، ط5، ج1، باب: الواو، ص345.

(47) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ط2، ج4، ص181.

(48) سورة المائدة، من الآية 51.

(49) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ط1، ج2، ص203.

(50) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ط2، ج6، ص217.

(51) سورة الممتحنة، من الآية 4.

(52) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ط2، ج18، ص56.

(53) مُصارمة: مُقاطعة. يقال: صَرَمْتُهُ صَرْمًا: قَطَعْتُهُ، وصَرم الشيءَ: قَطَعَهُ. والتصارم: التقاطع. يراجع: الرازي، مختار الصحاح، ط5، ج1، باب: الصاد، ص175، والفيومي، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، د. ط.، ج1، باب: الصاد مع الراء وما يثلثهما، ص339.

(54) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ط1، ج8، ص116.

(55) ابن باز، مجموع الفتاوى، د. ط.، ج2، ص179.

(56) ابن القيم، أحكام أهل الذمة، ط1، ج1، ص494.

(57) قوله صلى الله عليه وسلم: " أَبُلُّهَا بِبَلَاهَا"؛ يعني: أَصِلُهَا بصِلَتِهَا، يقال: بُلُّوا أرحامَكُم ولو بالسلام؛ أيْ: نَدُّوها بصِلَتِها. وهم يطلقون (النَّدَاوة) على الصلة كما يطلقون اليُبْس على القَطيعة، لأنهم لما رَأَوْا بعض الأشياء يتصلُ ويختلطُ بالنداوة، ويحصل بينهما التجافي والتفرق باليُبْس استعاروا البَلَل لمعنى الوَصْلِ، واليُبْسَ لمعنى القطيعة. يراجع: ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، د. ط.، ج1، ص153.

(58) رواه البخاري، ومسلم في صحيحهما، واللفظ للبخاري. يراجع: البخاري، صحيح البخاري، ط1، ج8، كتاب: الأدب، باب:، تُبَلُّ الرَّحِمُ بِبلالِها، الحديث رقم (5990)، ص6، ومسلم، صحيح مسلم، د. ط.، ج1، كتاب: الإيمان ، باب: موالاة المؤمنين ومقاطعة غيرهم والبراءة منهم، الحديث رقم (215)، ص197.

(59) ابن بطال، شرح صحيح البخاري، ط2، ج9، ص206.

(60) النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، ط2، ج3، ص88.

(61) ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، د. ط.، ج10، ص421.

(62) حديث صحيح. يراجع: أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد بن حنبل، ط1، ج31، مسند الكوفيين، الحديث رقم (19153)، ص491.

(63) سورة المجادلة، من الآية 22.

(64) علماء نجد الأعلام، الدرر السنية في الأجوبة النجدية، ط6، ج8، ص113.

(65) قال الألباني: صحيح. يراجع: أبو داود، سنن أبي داود، د. ط.، ج3، كتاب: الجهاد، باب: في الإقامة بأهل الشرك، الحديث رقم (2787)، ص93، والألباني، صحيح وضعيف سنن أبي داود، د. ط.، ج1، الحديث رقم (2787)، ص2.

(66) علماء نجد الأعلام، الدرر السنية في الأجوبة النجدية، ط6، ج8، ص163.

(67) غَشَّاهم به: جاءهم به. يقال: غَشِيَهُ غِشْيانا: جاءهُ. يراجع: الرازي، مختار الصحاح، ط5، ج1، باب: الغين، ص227.

(68) علماء نجد الأعلام، الدرر السنية في الأجوبة النجدية، ط6، ج8، ص345.

(69) المراد بقوله: "أنْ لا يكون من قلبه، ولَحَظِهِ ولَفْظِهِ بالميل إليه نصيب"؛ أي: أنْ لا يكون موضع اهتمامه. واللَّحْظُ: النَّظَر بمؤخِر العَيْن. يقال: لَحَظَهُ ولَحَظَ إليه لَحْظا: نَظَرَ إليه بمؤخِرِ عينِهِ. يراجع: الرازي، مختار الصحاح، ط5، ج1، باب: اللام، ص280.

(70) الحليمي، المنهاج في شُعب الإيمان، ط1، ج3، ص346.

(71) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، د. ط.، ج28، ص209.

(72) ابن القيم، أحكام أهل الذمة، ط1، ج1، ص499.

(73) علماء نجد الأعلام، الدرر السنية في الأجوبة النجدية، ط6، ج8، ص166.

(74) ابن باز، مجموع الفتاوى، د. ط.، ج6، ص393.

(75) سورة النساء، الآية 48.

(76) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ط1، ج7، ص121.

(77) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ط2، ج5، ص245.

(78) سورة البقرة، الآية 24.

(79) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ط1، ج1، ص111.

(80) سورة الشورى، الآية 16.

(81) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ط2، ج16، ص14-15.

(82) سورة الزخرف، الآيات 74-76.

(83) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ط1، ج7، ص221.

(84) سورة المطففين، الآيتان 15-16.

(85) سورة النساء، من الآية 56.

(86) سورة الإسراء، من الآية 97.

(87) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ط2، ج19، ص261-262.

(88) مسلم، صحيح مسلم، د. ط.، ج1، كتاب: الإيمان، باب: وجوب إيمان أهل الكتاب برسالة الإسلام، الحديث رقم (153)، ص134.

(89) النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، ط2، ج2، ص188.

(90) النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، ط2، ج2، ص188.

(91) مسلم، صحيح مسلم، د. ط.، ج1، كتاب: الإيمان، باب: من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة، ومن مات مشركا دخل النار، الحديث رقم (93)، ص94.

(92) النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، ط2، ج2، ص97.

(93) النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، ط2، ج1، ص217.

(94) سورة فاطر، من الآية 36.

(95) سورة البروج، من الآية 10.

(96) سورة الشورى، من الآية 16.

(97) أبو حنيفة النعمان، الفقه الأكبر، ط1، ج1، ص127.

(98) أبو حنيفة النعمان، الفقه الأكبر، ط1، ج1، ص128.

(99) سورة المطففين، من الآية 15.

(100) قوله: " في النار يُسجرون"؛ أي: يُحرقون. يقال:.سَجَرَ النار سَجْرًا: أوقدها، وأحْماها. والسَّجُورُ: اسم الحَطَب. وأهلُ النار حينئذ هم سَجُورُ جهنم والعياذ بالله. يراجع: ابن منظور، لسان العرب، ط3، ج4، باب: الراء، فصل: السين المهملة، ص346..

(101) سورة المائدة، من الآية 80.

(102) سورة فاطر، الآية 36.

(103) المزني، شرح السنة، ط1، ج1، ص83.

(104) سورة النساء، الآية 14.

(105) سورة النساء، الآية 56.

(106) ابن أبي زمنين، أصول السنة، ط1، ج1، ص257.

(107) سورة البقرة، الآية 81.

(108) الحليمي، المنهاج في شعب الإيمان، ط1، ج1، ص461.

(109) الغزنوي، أصول الدين، ط1، ج1، ص196.

(110) النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، ط2، ج1، ص217.

(111) ابن العطار، الاعتقاد الخالص من الشك والانتقاد، ط1، ج1، ص239.

(112) السفاريني الحنبلي، لوائح الأنوار السنية ولواقح الأفكار السنية، ط1، ج2، ص233.

(113) سورة الكهف، من الآية 29.

(114) سورة الكهف، من الآية 29.

(115) أبو حنيفة النعمان، الفقه الأكبر، ط1، ج1، ص100.

(116) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ط2، ج10، ص393.

(117) سورة فصلت، من الآية 46.

(118) سورة هود، الآيتان15-16.

(119) الطَّلِبَةُ: الشيءُ المطلوبُ. يراجع: الرازي، مختار الصحاح، ط5، ج1، باب: الطاء، ص191.

(120) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ط1، ج4، ص269.

(121) سورة النور، الآية 39.

(122) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ط2،ج12، ص282-283.

(123) سورة الفرقان، الآية 23.

(124) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ط2،ج13، ص22.

(125) ابن جُدعان كان من رؤساء قريش، واسمه عبد الله، وكان كثيرَ الإطعام، وكان اتخذَ للضِّيفَان جَفْنَةَ يُرْقَى إليها بسُلَّمٍ، وكان من بني تميم بن مُرَّةَ أقرباءِ عائشةَ رضي الله عنها. يراجع: النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، ط2، ج3، ص87.

(126) مسلم، صحيح مسلم، د. ط.، ج1، كتاب: الإيمان، باب: الدليل على أنَّ من مات على الكفر لا ينفعه عمل، الحديث رقم (214)، ص196.

(127) النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، ط2، ج3، ص87.

(128) النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، ط2، ج3، ص87.

(129) جريدة الأهرام المصرية، بتاريخ: السبت 29 من جمادي الآخرة 1439 هـ 17 مارس 2018، السنة 142، العدد 47948.